في نظرية الاستعارة

التفكير الاستعارى في الدراسات الغربية

د. أحمد صبرة

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار الصديقان للنشر والإعلان

في نظرية الاستعارة

التفكير الاستعاري في الدراسات الغربية

د. أحمد صبرة

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار الصديقان للنشر والإعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بدأت فكرة هذا البحث بعد قراءة المقال القيم الذى كتبه ماكس بلاك عن الاستعارة والذى طـور فيه أصول النظرية التفاعلية فـى فـهم الاسـتعارة كمـا وضعـها ريتشاردز، كان الغرض الأساسى هو مقارنة ما قام به بلاك بما قام به عبد القاهر فى درس الاستعارة بوصف عبد القاهر واحداً من أهم من كتبوا عنها فى البلاغـة العـربية القديمة، كما أن ماكس بلاك من أهم من بحثوا فيها عند الغربيين، وفـى أثناء المرحلة التمهيدية للبحث بدأت القراءات فى الاستعارة عند الغربيين تكشـف عن اتجاهات جديدة فى التناول تخالف فى كثير من جوانبها ما استقر لدينـا فـى درس الاستعارة، لقد كان مما يلفت النظر فـى البدايـة أن الاهتمـام بموضـوع الاستعارة لم يكن مقصورا فقط على البلاغيين التقليديين كما اسـتقر لدينـا فـى البلاغة العربية، بل تعداهم إلى الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء اللغـة، ورجـال التربية والتعليم، والمهتمين بالنظريات العلمية، وطائفة غير قليلة مـن الفنـانين التشكيليين، لقد أنتج كل هؤلاء بحوثاً عميقة فى الاستعارة، من زاوية كل حقل من الحقول التى يعملون بها، أدخلت الاستعارة معامل علماء النفس فى تجربة مثـيرة عرض لها هنا البحث بالتفصيل، وأدخلـت أيضـاً معـامل الفيزيـاء والكيميـاء والرياضيات ليتم من خلال ذلك اكتشاف الطريقة التى تؤثر بـها الاسـتعارة فـى صياغة النظريات العملية.

أمام هذا الفيض من الدراسات الاستعارية الجديدة وجدت أن الأكثر صوابـا فى هـذه المرحلة البدء بعرض بعض جوانب التفكير الاستعارى عنـد الغربيين، وهذا هو هدف البحث الرئيس، وقد تخلل ذلك بعض مقارنات فى قضايا الاستعارة بين ما كتبه هؤلاء، وما عرض له البلاغيون العرب القدماء منهم والمحدثون، لكن

هذه المقارنات كانت تأتى عرضاً ولم تكن هاجساً رئيساً فى البحث، ففى ظنــى أن الدراسة المقارنة فى موضوع الاستعارة تستلزم منهجاً آخر، ووجهة نظر أخــرى لما اختطه البحث لنفسه هنا.

هذا العرض للتفكير الغربى فى موضوع الاستعارة يخدم الدرس العــربى لها بفتحه مجالات أكثر اتساعاً لفهمها، وللكيفية التى تؤثر بها فى اللغة وفى طــريقة التواصــل بين البشر، إن الدراسات التى يعرض لها البحث هنا دراسات أصيلة فى بابها، وهى تقدم رؤى جديدة فى درس الاستعارة، وقد تم اخــتيارها مــن حقــول عدة هى حقول: اللسانية والتداولية وعلم النفس والفلسفة، إضافة إلــى دراســة فريدة كتبتها كرستين بروك روز عن " نحو الاســتعارة" وأمــل أن تســهم هــذه الدراسات فى تحفيز المشتغلين بالعلوم الإنسانية إلى تقديم إسهاماتهم العربية فــى هذا الموضوع المهم.

د. أحمد صبرة

التفكير الاستعاري في الدراسات الغربية

تمهيد

كتب ماكس بلاك Max black في مقاله الثاني عن الاستعارة " أن جون ميدلتون موري John Middleton Murry افتتح بحثه عن الاستعارة بهذه الملاحظة: كثير من الدراسات حول الاستعارة تفاجئنا للوهلة الأولى بأنها دراسات سطحية، وفي الواقع فإن هذا التعليق لا يبدو ملائما، فالكم غير العادي للمقالات والكتب في موضوع الاستعارة، الذي أنتج خلال أربعين عاما مضت يثبت أن الاستعارة موضوع لا ينضب، وقد جمع وارن شيبلس Warren Shibles في ببلوجرافيته (١٩٧١) ثلاث مائة صفحة عن الاستعارة ربما احتوت على أربعة آلاف عنوان.(١)

مثل هذا الاهتمام غير العادي بموضوع الاستعارة نجد له نظيرا في الدراسات العربية، وإذا كان غير متاح إجراء إحصاء مماثل لما قام به شيبلس، فإن أي باحث عربي يدرك من خلال استقصائه المحدود أن ما كتب حول الاستعارة كثير جدا، وأنه لا يستطيع وحده حصر هذا الذي كتب، بله قراءته واستخلاص ما فيه، والعينة التي تتجمع أمامه ربما تكشف عن الاتجاهات العامة في البحث العربي في موضوع الاستعارة.

لم يفصل بلاك أسباب الاهتمام الكبير ببحث الاستعارة في الغرب، لكننا ندرك في الشرق أن كثيرا جدا مما كتب عنها في الدراسات العربية تم لأسباب عملية أهمها حاجة الطلاب في الجامعات إلى شروح مبسطة لما كتبه القدماء عن الاستعارة في دائرة علم البيان . هذه الكتب - وتمثل النسبة الأكبر - لا تكاد تتمايز فيما بينها، سواء في المنهج الذي تتبعه، أو في الأمثلة التي تعرضها، أو في النتائج التي تستخلصها، إن كانت ثمة نتائج تستخلص.(٢)

لكن الدراسات الجادة ليست قليلة، على الرغم من أنها تمثل النسبة الأصغر فيما كتب عن الاستعارة ، هذا يعني أن هناك أسبابا غير عملية للاهتمام

بالاستعارة، أسباب تتعلق بجاذبية الاستعارة ذاتها، وطبيعة تركيبها، والمشكلات التي تثيرها، والأثر الذي تحدثه، كل هذا مقارنة بالأنواع البلاغية الأخرى التي لم تحظ بالاهتمام الكبير الذي حظيت به الاستعارة.

إذن ما الذي يدعو إلى دراسة جديدة عنها؟ سؤال أساسي لا بد من طرحه هنا، والإجابة عنه، ذلك أن هذه الإجابة هي التي ستعطي للبحث مشروعيته، وستحدد كثيرا من زواياه. في ظني أنه على الرغم من أن كتابات القدماء والمحدثين على السواء قد عالجت كثيرا من قضايا الاستعارة، وتمت هذه المعالجات في بعض الأحيان في صورة عميقة، فإن منظور هذه الكتابات كان دائما هو النظر إلى الاستعارة على أنها ظاهرة استثنائية في اللغة، ظاهرة ترتبط بالشعر دائما، وبأنواع الكتابات الفنية الأخرى أحيانا. لقد كانت تتفلت من أيدي بعض الباحثين أحيانا إشارات تنم عن فهم أكثر اتساعا للاستعارة، لكن هذه الإشارات ظلت محدودة الأثر في بنية هذه الدراسات، وراجع عناوين بعض من أكثر الدراسات جدية في موضوع الاستعارة لتتأكد من هذه الفرضية:

- الصورة الأدبية: د . مصطفى ناصف ١٩٥٨.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: د. جابر عصفور ١٩٧٣.
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي: الولي محمد ١٩٩٢.

بجانب ذلك فإن المجلات النقدية تمتلئ ببحوث كثيرة حول قضايا الاستعارة لكن معظمها يدور في إطار الشعر، وهو إطار على الرغم من غناه الداخلي، فإنه يظل محصورا في حقل واحد، تتفاعل داخله قضايا الاستعارة، دون النظر إلى الحقول الأخرى التي تطرح مشكلات ربما تساعد على تقديم تصور أكثر اتساعا للاستعارة.

ما أقصده هنا أن الاستعارة ليست مظهرا من مظاهر لغة الشعر فقط، بل إنها إحدى المظاهر المهمة في اللغة العادية، وهى حقيقة ربما تكون مدركة، لكنها

لم تترجم إلى موقف نقدى، إنها تبدو في الشعر أكثر تألقا، وربما أكثر تأثيرا، لكن الدور الذي تقوم به في غير لغة الشعر دور لا يمكن تجاهله، إننا ننتج استعارات كثيرة في لغتنا اليومية، وتمتلئ الصحف والمجلات بالكثير منها، "المباراة تلفظ أنفاسها الأخيرة" جملة يقولها أحد المعلقين على قرب انتهاء الوقت، أو "الإسماعيلي يغرق في البحر الأحمر" عندما ينهزم فريق كرة القدم بالنادي الإسماعيلي من فريق اسمه "البحر الأحمر" وكذلك لفظا (الصقور) و (الحمائم) اللذان يطلقان على الأجنحة المتشددة أو المعتدلة تجاه سياسة ما، وقد ظهر هذان اللفظان في صحف الولايات المتحدة الأمريكية في أثناء حرب فيتنام، وهذه مجرد أمثلة قليلة من حقلي الرياضة والسياسة، ناهيك عن الحقول الأخرى التي يتم فيها استخدام الاستعارة في صورة مكثفة، وفي مجال التعليم فإن بعض التربويين مثل البروفيسور هوج بتري . Hugh G Petrie . في بحثه عن "الاستعارة والتعلم" Metaphor-and Learning ، يرى أن الاستعارة تمكن الفرد من نقل العلم والفهم من مستوى معروف إلى مستوى أقل معرفة بأسلوب حيوي وقابل للتذكر ، وهو يرى أنها واحدة من الأساليب المركزية للقفز على الهوة المعرفية بين المعرفة القديمة والمعرفة الجوهرية الجديدة، كما أنها يمكن أن تمدنا بجسر عقلي مما هو معلوم إلى ما هو ليس معلوما جوهريا، من السياق المعطى للفهم إلى السياق المتغير للفهم، وهي تقوم مع وسائل أخرى بهذه المهمة مثل القياس والنموذج والنظريات، لكن هناك فروقا مهمة بين الاستعارة وبين هذه الوسائل [٣]. لقد طرح بتري أفكارا مهمة في سياق استخدام الاستعارة في مجال التعليم، وناقش النظريات الاستعارية الأساسية مثل نظرية المقارنة، والنظرية التفاعلية، وبين كيف يمكن استخدامهما في تحليل الجملة الاستعارية الناقلة للمعلومة من زاوية المعلم والطالب، ورأى أن الاستعارة تمثل فعلا كلاميا، وهي بذلك يمكن أن تطابق الواقع أو لا تطابقه، وفي مجال التعليم فإن الطالب عندما يستمع إلى استعارة من المعلم، فإنه سيفهمها

على أنها غير مطابقة للواقــع، وعندئذ سيرى أن المعلم غير جاد في درسه، لكن الطالب يجب أن يفهم هذه الاستعارة بأسلوب مختلف، يجب أن يبحث عن مفــاتيح يرى بها أن المعلم جاد، ويحــاول أن يقــول شــيئا مفيدا، مثل هـــذه المفــاتيح مهمة جدا في السياق التعليمي.(٤)

وقد نوقش دور الاستعارة أيضا في مجال العلوم البحتة ، فقدم ريتشـــارد بويد Richard Boyd في بحثه عن "الاســتعارة وتغــير النظريــة Metaphor and Theory Change : What is Metaphor a Metaphor for ? " رؤية للكيفية التي تستخدم بها الاستعارات في هذا المجال، فرأى أن هناك مسـتوى مهما مــن الاســتعارات يلعب دورا مهما في تطوير النظريات العلمية ووظيفتها هي نوع من الاســتعارات الضرورية catachrsis التي تبتكر مصطلحا علميا لم يكن موجودا مــن قبــل مثــل "الثقــب الدودي Worm holes" و "سحابة الكترونــات Electron cloud" و "النظــام الشمسي المصغر Miniature Solar System"، ويرى بويد أن اســتخدام الاســتعارة واحد من أكثر الوسائل المتاحة للمجتمع العلمي لإنجاز مهمة تكييــف اللغــة مــع البنية السببية للعالم، كما يفرق بين الاستعارات في العلم والاســتعارات في الأدب، فيقول إن الاستعارات العلمية لا تكون مؤثرة إلا من خلال استخدام مئات العلمــاء لها، وهي لا تدرك من خلال عمل واحد شأن الاستعارات الأدبية، بل من خلال جيل أو أكــثر من العلماء، ويرى فــي اســتعارات الأدب جــانبين: جــانب إنتــاج الاســتعارة، وجــانب تفسيرها الذي هو مهمة النقد الأدبي، أما في العلـــم فــإن مهمة الاســتعارة هي تقديم أفضل تفسير ممكن للمصطلح المــراد توظيفــه، وإذا كان محتوى الاستعارة في الأدب غير ممكن إعادة صياغته في لغة حرفية، فإن هذا ممكن في الاســتعارات العلمية، هذا الخلاف التنظيمي بين الاســتعارات العلميــة والاستعارات الأدبية هو انعكاس للخلاف المهم في الأســاليب التــي تكــون بــها الاستعارات في كلا النوعين غير محددة.(٥)

هذه المجالات التي عرضنا لعمل الاستعارة فيها باختصار تعني أن الاستعارة هي إحدى أدوات الاتصال المهمة بين البشر، وقد ترتب على هذه الوظيفة الاتصالية نتائج أعادت النظر في المسلمات التي قام عليها بحث الاستعارة، سواء فيما يخص تعريفها، أو طبيعتها، أو علاقتها بقضية الحقيقة والمجاز، أو في طبيعتها الاتصالية، ونشأت عن ذلك جملة من الأسئلة لم تكن لتطرح بالقوة نفسها إذا ما كان درس الاستعارة محصورا في حقل الشعر، أسئلة مثل التي طرحها جون سورل في بحثه عن تداولية الاستعارة:

- كيف تختلف الاستعارة عن الكلام الحرفي والملفوظات التصويرية الأخرى؟
- لماذا نعبر عما نريد استعاريا بدلا من أن نعبر عن ذلك بشكل حرفي؟
- كيف يعمل الملفوظ الاستعاري؟
- كيف تؤثر بعض الاستعارات ولا تؤثر أخرى؟[٦]

أو التي طرحها بروس فرايزر Bruce Fraser في بحثه عن الاستعارة في حقل علم النفس مثل:

- هل يختلف تفسير الاستعارة طبقا لبعض السمات الخاصة في المتكلم مثل عمره ودرجة تعليمه ونوعه وخلفيته الثقافية؟
- هل يمكننا تحديد السمات الخاصة التي تظهر في الاستعارات التي نتفق عليها؟

إننا سنجد في أثناء البحث أن كل حقل معرفي قد طرح أسئلته الخاصة حول الاستعارة، وعلى الرغم من اختلاف هذه الأسئلة من حقل إلى آخر، فإن هناك رابطا مشتركا، أو اتفاقا على أهمية الوظيفة الاتصالية في الاستعارة.

أما مشكلات الاستعارة في حقل الشعر، أو في حقل اللغة الفنية عامة، فقد أعيد بحثها وفقا للمفاهيم المعرفية الجديدة التي طرحت. هناك مثلا فكرة التزيين التي ارتبطت بالاستعارة، والتي نجد لها أصداء سواء في كتب النقد العربي القديم،

أو في الدراسات الغربية عن الاستعارة قبل ريتشاردز، لقد رُفِضَتْ هـذه الفكـرة، واعتبرت الاستعارة عنصرا أساسيا، وليس إضافيا، بل إنها المخرج الوحيد لشيء لا ينال بغيرها.(٧) كذلك موضوع ربط الاستعارة بالانفعـال آليـا وضـع تحـت الفحص، ونوقش كثير من العناصر المرتبطة به، وأيضا تم التركيز في الدراسـات الجديدة على دور الاستعارات الميتة في اللغة بدلا من الإشـارة إليـها إشـارات عابرة، وغير ذلك من القضايا التي أعيد طرحها.

إن ما يهـدف إليه البحث هنا هو دراسة طبيعة التفكير الاستعاري ذاتـه في تجلياته في أكثر من حقل معرفي من خلال دراسات الغربيين له، لذلـك فـإن المحاور الأساسية التي سنبحثها هي:

- التركيب اللغوي للاستعارة.
- الاستعارة واللسانيات.
- الاستعارة والتداولية.
- النظريات الأساسية في الاستعارة.

هذه المحاور نتاج تأمل طويل لمشكلات اللغة في الفـكر الغربـي، وهـو تأمل لم يكن ليظهر لولا التقدم الحضاري والتطور المعرفي عـبر مئات السنين في المجـتمع الغربي، والذي استطاع أن يكيف كل الأدوات المتاحة كي يحافظ علـى هذا التقـدم، ولا شك أن اللغة إحدى الوسائل المهمة في هذا الإطار، ولا شك أيضا أن تطويع الاستعارة والسيطرة عليها باعتبارها من مشكلات اللغة العويصة كـان مجال تحد لكثير من المهتمين بها، سـواء أكانوا لسانيين أم فلاسـفة أم علمـاء نفس أم تربويين أم علماء أم فنانين مثل بيكاسو الذي أدلى بآراء مهمة في هـذا المجال.

أما في الدراسـات العربية فإن درس الاسـتعارة ظـل حبيـس المجـال الشعري، وهذا ليس قدحا في البلاغيين العرب: القدماء منهم والمحدثين، فيقيننا أن بحث الدور الذي تقوم به الاستعارة في المجالات المعرفية المختلفة هو بحث يجب

أن يقوم به علماء كل حقل على حدة، إن دور الاستعارة في صياغــــة النظريــات العلمية، أو دورها في علم النفس، أو في الفنون التشكيلية دور يبحثه واحد مــن أهل هذه الحقول ، فهو أكثر دراية بمشكلاته، وأكثر قدرة علــى تصــور الحلــول الممكنة، وهذا ما حدث في درس الاستعارة عند الغربيين، فلم تكن الأسماء التــي طرحناها سابقا، أو التي سنشير إليها لاحقا من البلاغيين التقليديين، بل هم علماء في كل حقل يتحدثون فيه عن دور الاستعارة ، علماء لهم اهتمام واضح بفلســفة العلم .

لكن السؤال المركزي الذي يجب طرحه في البداية هو: هل نحن نتحــدث عن الاستعارة نفسها عندما ندرسها عند العرب أو عند الغربيين؟ بعبارة أخرى هل المفــهوم واحد في كلا الدرسين؟ إن مشروعية هذا السؤال تأتي مــن الضبابيــة والتشوش اللتين تصاحبان ترجمة بعض المصطلحات المهمة إلى العربية، حــدث هــذا مع مصطلح Metonymy الذي ترجم أولا على أنه كنايــة، ثــم اســتقر الآن مجازا مرسلا، ومصطلح Synecdoche الذي ترجم على أنه المجــاز المرســل، ثــم خصص الآن بنوع منه هو "مجاز الكلية".[٨]، وفــي مجــال النقــد الأدبــي فــإن مصطلحات الكلاسيكية والرومانسية مثلا تؤدي دلالات في العربية تختلــف عمــا تؤديه في بيئتها الأصلية.

أما المصطــلح الذي يعنينا فهــو Metaphor ، فقــد ترجــم أولا عــلى أنه (المجاز)، وما تزال هناك كتابات تستخدم هذه الترجمة.[٩] لكن تمحيص هذا المصطلح في بيئته الغربية من قبل عدد من الدارسين.[١٠] غــير الترجمــة إلــى المصطلح العربي (استعارة)، لكن هناك بعض الضبابية حول المصطلح ما تــزال قائمة، خاصة حين نقرأ مثلا عند ماكس بلاك هذه الجملة التي يعدها استعارة:

The Poor are the Negroes of Europe .

- الفقراء هم زنوج أوربا .[١١]

بينما استقر هذا التركيب لدينا على أنه من أنواع التشبيه، فكيف يمكن التأكد من أننا نتحدث عن الظاهرة نفسها حين نستخدم المصطلح نفسه؟

لعل شكل الاستعارة هو أحد المحكات المهمة لعملية التأكد، ونعني به هنا التركيب اللغوي للاستعارة، مع يقيننا أن لكل لغة خصوصيتها التركيبية، لكن إنتاج الاستعارة هو عملية عقلية أساسا، عملية تتبع مجموعة إجراءات محددة لا تكاد تحيد عنها، تتجلى أخيرا في تركيب لغوي يظل محافظا في دلالات عناصره المفردة والمركبة على أصول هذه العملية العقلية التي لا يختلف فيها فرد عن آخر من أفراد الجنس البشري إلا بحسب قدرته على إنتاج الاستعارة أصلا.

التركيب اللغوي للاستعارة :

يهدف هذا الجزء إلى البحث عن العناصر الأساسية القارة في أي تركيب لغوي للاستعارة، سواء داخل اللغة الواحدة، أو مقارنة بلغات أخرى. هذه العناصر هي التي تعطي للاستعارة كينونتها، وطابعها العام الذي يجعل كل مستخدم لمصطلح (الاستعارة) يتحدث عن الظاهرة نفسها على الرغم من وجود اختلافات تركيبية لها بين اللغات المختلفة، كما يهدف أيضا إلى إدراك التماثلات التركيبية للغة الاستعارة بين العربية والإنجليزية نموذجا يمكن تطبيقه على اللغات الأخرى من زاوية المنهج التقابلي، أما مصطلحات هذه العناصر الأساسية فحولها خلاف كبير ، وسنجد - حين نتقدم في البحث - أن كل نظرية في الاستعارة أنشأت لنفسها مصطلحاتها الخاصة، سنجد مصطلحات البؤرة والإطار عند ماكس بلاك، والحامل والمحمول عند ريتشاردز ، والتعبير المتصل والتعبير المنفصل عند فرنر أبراهام، وغير ذلك، لكننا لا نجد بأسا في العودة مرة أخرى إلى المصطلحات الراسخة في البلاغة العربية القديمة بشأن هذه العناصر ، وهي

مصطلحات المستعار له والمستعار منه، علـــى الرغـــم مـــن أن اســـتخدام هـــذه المصطلحات يحمل في طياته انحيازا لفكرة ارتبـــاط الاســـتعارة بالتشبيـــه، أو أن الأساس التشبيهي هو جوهر الاستعارة.

إن التركيب اللغوي للاســـتعارة شأنه شأن أي تركيب لغوي آخر، يحتوي على العناصر نفســـها، ويتبع القواعد النحوية نفسها لكل لغة، لكن البحث فيه هو بحث عن الكلمة أو العبارة التي يكون وجودها ســـببا في بروز الاستعارة، وهـــو بحث أكثر التصاقا بالدلالة، لكن الفصل بين التركيب والدلالة متعـــذر حتـــى مـــن الزاوية النظرية المجردة. إن هذه الكلمة الاستعارية هـــي التـــي تحـــدث التمـــايز الدلالي، والتي يكون موقعها داخـــل التركيب سببا من الأسباب المهمة في أن تعمل بعض الاستعارات، وتكف أخرى عن العمل، وهو موضوع تحدث فيه عبد القـــاهر بالتفصيل في دلائل الإعجاز.[١٢] فيما أسماه بالنظم، ويعد عبد القاهر من أهم مـــن بحثوا موضوع التركيب اللغوي للاستعارة، وكذلك السكاكي في "مفتاح العلوم"، كما تعد كرستين بروك روز Christine Brooke - Rose من أهم من بحثوا هذا الموضوع في اللغة الإنجليزية في كتابها "نحو الاستعارة A Grammar of Metaphor " الـــذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٨، ويعتمد هذا الجزء من البحث على أعمال هؤلاء الثلاثة.

تتبنى بروك روز الرؤية الاستبدالية في الاستعارة، لذلك تكرس فصلين من كتابها للحديث عن نحو الاستعارة من زاوية الاستبدال، وتنقسم الاســـتعارة لديـــها إلى استعارة اسمية، واستعارة فعلية، وتتحدث كذلك عن الاستعارة فـــي الحـــروف التي تقســـمها إلى أدوات تعـــريف ، وأدوات أخرى، وهي التي تبدأ بها الكتـــاب، أما الفصول الأربعة التالية فتحتوي على الاستعارة الاسمية التي تنقسم لديها إلى:

١ – صيغة الإشارة The Pointing Formula

٢ – الفعل الرابط The Verb To Be

٣ – فعل To Make

٤ – الإضافة The Genitive Link

تتحدث بعد ذلك عن الاستعارة الفعلية في ثلاثة فصول:

١ – الفعل The Verb

٢ – الكلمات والتعبيرات المساعدة Auxiliary Words and Phrases

٣ – الفعل المضاف إلى اسم The Verb added to the Noun

الاستعارة في الأدوات:

تبدأ بروك روز الحديث عن أداة التعريف (THE) حيث ترى أن هذه الأداة تضيف بارتباطها مع الخبرة السابقة سمات خاصة للمعنى العام للكلمة، فمن خلال إشارتها الواضحة للمعرفة الخارجية التي لا تحتوي عليها الكلمة نفسها، فإن أداة التعريف تعطي لمعنى الكلمة المرتبطة بها شيئا متفردا، حتى ولو كانت ألفتنا بهذه الكلمة ضعيفة. إن أداة التعريف تفترض ألفتنا أو معرفتنا السابقة بالشيء نفسه، مثلا عند الحديث عن (كتاب) نستطيع أن نقول (المؤلف) دون الإشارة إليه، أو حتى معرفة اسمه [١٣]. من خلال هذه الرؤية تكون أداة التعريف بديلا عن معرفة خارج نطاق الجملة التي تحتويها ، ويمكن استخدام هذه الأداة استخداما استعاريا، فعندما يطلق سبنسر على بطله الذي لا يسميه (الجني الشجاع) أو (البطل) فإننا نعرف عمن يتحدث سبنسر بفضل ارتباط الأداة بالمعرفة السابقة التي نسميها السياق، أو عندما يطلق ميلتون على الشيطان أسماء (الخصم) أو (العدو) أو (المغوي) فإننا نعرف أنه يتحدث عن الشيطان بفضل الأداة التي تشير إلى السياق العام، والتي تكون هنا مثل أداة الإشارة لكنها تختلف عنا قليلا في أن أداة التعريف تتضمن ألفة بالمعارف الخارجية أو السابقة التي تشير إليها الجملة. [١٤]

إن بعض استعارات الاستبدال البسيط التي تستخدم أداة التعريف هي في الحقيقة استعارات ربط إضافي، فعندما أطلق ميلتون على الشيطان اسم (العدو The Foe)، فإنه استخدم أداة التعريف المرتبطة بكلمة عدو كأنه يعني بها (عدو البشرية The Enimie of Mankind)، وهذا التركيب هو ربط إضافي، إن الارتباط الآلي في الحقيقة كما تقول بروك روز هو الفكرة الأساسية في الاستبدال البسيط الذي يستخدم أداة التعريف، حتى عندما تكون الاستعارة ليست واضحة بنفسها، أو مبتذلة، فإننا نعتمد كثيرا على السياق العام الذي يساعدنا على تخمين التعبير الحقيقي، وتضرب روز مثلا على ذلك بكلمة (الصفقة The bargaine) عند دون Donne ، ففي سياق (الحب) يمكن أن تكون الكلمة بديلا عن أكثر من معنى حرفي مثل (تغير العهود) أو (اتفاق عملي بين العاشقين) أو (عملية استعطاف وغواية) وفي سياق (الدين) يمكن أن تكون بديلا عن (تجربة الحوار) أو (تلقي الأوامر المقدسة)، وفي سياق (الاقتصاد) يمكن أن تستخدم كلمة صفقة استخداما حرفيا.(١٥)

والتأكيد على أهمية السياق في تحديد نوع الاستبدال المطروح هو موضوع كثر بحثه قبل بروك روز سواء في التراث العربي عند عبد القاهر الذي أشار في ذلك إشارات عميقة، أو عند ريتشاردز وماكس بلاك، كما بحثت هذا الموضوع أيضا كثير من نظريات الاستعارة.

وتؤكد بروك روز على أهمية الاستبدال البسيط حين تذكر أن جزءا من سحره يكمن بالتحديد في حقيقة أن الاسم قد لا يكون بديلا لأكثر من فكرة مضمرة فقط كما رأينا في كلمة (الصفقة)، بل في حقيقة أنه يمكن أيضا التعامل معه بشكل حرفي.(١٦) والذي تشير إليه بروك روز هنا ألصق ببحث الكناية منه بالاستعارة، خاصة حين تضرب مثلا على ذلك بكلمة (خنادق Ditches) فهي يمكن أن تكون بديلا لأشياء فكرية مثل المعرفة والدين والفن، لكن يمكن فهمها حرفيا على أنها خنادق حقيقية، وقد فعل إليوت ذلك في (الأرض

اليباب) فقـد تخيل الأرض أن بها أشجارا ميتة وصراصير وصخورا حمراء مـع ظلالها، كل هذه رموز تعلمنا أن ندركها، لكن الكلمات قد كتبت ببساطة كما لو كان إليوت يصـف مشهدا حقيقيا، وهذا هو الذي يسمى عادة في النقد الأدبي (التخيل Imagery)، والتقنية التي استخدمها إليوت هنا في الوصـف تسـمى (المعـادل الموضوعي Objective correlative).[١٧]

تتحدث بروك روز بعد ذلك عن أداة التنكير (A)، وترى أن الاسـتخدام الاسـتهلاكي لهذه الأداة يعد شيئا مثيرا في الاستبدال البسيط، إن هذه الأداة تعطي للاسـتعارة مذاقا سريا، ولا تفترض الألفة مع الأشيـاء (كمـا فـي حالـة أداة التعريف)، فبدلا من افتراض (أنك تعرف ما أعنيه) ـ إن اسـتعارة الاسـتبدال البسيط مع أداة التنكير تتبع عادة عبارات مساوية Qualifying phrase ، أو تعبيرات إضافية[١٨] A Further statement .

استعارة الاستبدال البسيط في الأدوات الأخرى :

تكون استعارة الاستبدال البسيط في أنواع الكلام الأخرى مثل صفة الملكية Possessive adjective (سجنها her prison لحالة الوقوع فـي الحـب)، وصفـات التنكير indefinite adjective ، والصـفات الاسـتفهامية interrogative adjective مثل (كل الأعداء What, which, some, any, all enemies)، والصفات المؤهلة qualifying adjective كرابط مع التعبير الحقيقي مثل (الإطار البشري كتعبير عن الجسـد)، والتعبير الإشاري demonstrative expression مـثل (This Fire, So hot Fire, Such a Fire).

ونكتفي هنا بالحديث عن صفة الملكية نموذجـا للحديـث عـن الصفـات الأخرى التي تبدو أكثر ارتباطا بطبيعة التركيب في اللغة الإنجليزية .

من وجهة نظر بروك روز، تبدو صفات الملكية أقل الأساليب فاعلية في تقديم استعارة الاستبدال البسيط ، إن نمطها في التخصيص يفترض الألفة مع الأشياء مثل أداة التعريف (The)، فلو أطلق الشاعر مثلا على حبه كلمة (مرضي my disease) فإنه يفترض أننا سندرك أنه لا يتحدث عن مرض حقيقي، وفي الوقت نفسه فإن أداة الملكية (my) لا تملك عمومية أداة التعريف، فهي تحدد النطاق المحتمل للاستعارة ، وهو نطاق قد يتعلق فيه شخص ما حرفيا بشيء يرتبط بالوجود البشري، ومن ثم فإن الاحتمال الحرفي قائم - يمكن أن يكون الرجل ذا مرض حقيقي)، وهكذا فإن احتمالية التفسير الحرفي أكثر إمكانية مع صفات الملكية عنها مع أداة التعريف التي يمكن أن تشير إلى شيء مستقل عن الرجل.(١٩)

تثير بروك روز بعد ذلك مشكلة الربط بين التعبير الحقيقي والتعبير الاستعاري خاصة إذا تلازما في جملة واحدة مثل الجملة التي تتحدث عنها بعد ذلك (إنه أسدي وسيدي النبيل)، وهي تراكيب لم يلتفت إليها كثيرا في بحث الاستعارة العربية، إنها تبدأ موضوعها بتقرير أن السؤال عن كيفية ارتباط تعبيرين في جملة واحدة هو سؤال عن الوضوح، وليس عن مدى التأثير، لأن الوضوح يمكن أن يفقد إذا كان الربط مفقودا، أو كان ربطا غير متقن، ولا يفترض في أدوات الاستهلال مثل هذه الأهمية، فعلى سبيل المثال: أدوات الإشارة تشير هنا إلى أشياء سابقة: تعبير حقيقي معلن، ومع ذلك لا تستخدم مثل استخدام الشكل القوي لأداة التعريف، و أيضا لو حلت الاستعارة محل تعبيرها الحقيقي في حالة البدل المباشر direct apposition ، فإنها تدرك حالا سواء سبقت بأداة التعريف، أو لم تكن بها أية أداة على الإطلاق، ويمكن تطبيق الملاحظات نفسها التي تعطيها هذه الأدوات لدرجة التخصيصية على الاستعارات المرتبطة بتعبيراتها الحقيقية بأسلوب مختلف عن أسلوبها مع الإشارة.

إن موضوع الربط بين التعبيرات هو الموضوع الأكثر إلحاحا على بروك روز، لذلك تحدد له مناهج أطلقت عليها كلها صيغة الإشارة pointing formulae ، وترى أن هذه المناهج أكثر وضوحا من الاستبدال البسيط، وهي أيضا أكثر مراوغة من أية أنماط أخرى للربط، لأنها تحل التعبير الاستعاري (B) محل التعبير الحقيقي (A) دون استخدام تعبير مباشر، وعدم استخدام تعبير مباشر يمكن أن يكون أيضا عيبا، فالشيء الذي يكون مراوغا في حالة ربطه جيدا، يمكن أن يكون غامضا عندما يفتقد الربط ، أو عندما يهرب التعبير الحقيقي منه.[٢٠]

وقد حددت بروك روز أربعة أساليب يرتبط فيها التعبير الحقيقي بالتعبير الاستعاري داخل سياق واحد، أو في جملة واحدة، وهذه الأساليب هي:

١ - التعبير الإشاري.
٢ - التوازي.
٣ - البدل.
٤ - النداء.

١ - التعبير الإشاري:

ينص فيه على الاسم أولا، ثم يشار إليه لاحقا باسم بديل كما لو كان قد أصبح شيئا آخر، مثل هذا النص من دون:

And sweare
No where
Lives a woman true , and faire
If thou findst one , let mee know
Such a Pilgrimage were sweet ..

ففي البيت الأخير، ليست المرأة هي رحلة الحج، بل الرحلة إليها التي لم يشر إليها هنا، لكنها مفهومة ضمنا، لكن المرأة - باستخدام أساليب الإشارة أصبحت قديسة يرحل إليها الناس.[٢١]

٢ - التوازي:

من صيغ الإشارة الأقل ضبطا ومنطقية ، فلا يوجد في هذه الصيغ أية إشارة إلى تعبير حقيقي، بل تكرار لنفس التركيب باستخدام أداة العطف (و and) ، ولأن الربط ليس واضحا فيها ، فإن كلا من الاستعارة والتعبير الحقيقي يمكن أن يبدوا أحيانا مثل تعبيرين لتشبيه مضمر، أو جملتين حرفيتين، مثل الاستبدال البسيط الذي يمكن فهمه حرفيا، لكن على أنه رمز لأشياء مشابهة أخرى.

إن التوازي أكثر استخداما في الشعر الحديث، كذلك يكون غالبا في الشعر الديني، والشعر المتأثر بلغة الإنجيل، إن أبسط نوع للتوازي هو الذي يستخدم (and) التي لا تكون أبدا ربطا منطقيا (A .. ... and B) كما أن (A) تكون شيئا ، و (B) تكون شيئا آخر، وكما سنرى فإن تكرار الفعل أو المرادف له يقدم تواز كامل، لكنه يخاطر بفصل الجملتين اللتين تبدوان عندئذ مثل جملتين حرفيتين منفصلتين، ولو اشترك تعبيران في فعل واحد، فإن التعادل سيكون أشد صعوبة للاستعارات غير المعتادة، لأن التوازى يعتمد تماما على (and)، لكنه يكون أسهل للاستعارات الواضحة، لأن هناك جملة واحدة مستخدمة في هذه الحالة.

بكلمة أخرى، فإن الشيء الأقرب للتعادل يكون في حالة استخدام (and) في أبسط صورها مع مرادف استعاري يكون فيه (A) هو (A و B) في الوقت نفسه، ويترتب على هذا أن فكرة (B) يمكن أن تضاف إلى فكرة (A)، وهذا البيت مثال على ذلك :

But he my Lyon , and my noble Lord .

- إنه أسدي وسيدي النبيل .

لكن (and) ليست هي وحدها المستخدمة في إحداث التوازي ، هناك أدوات أخرى مثل Then , when ، تكرار الفعل، أو استخدام المرادف له .[٢٢]

٣ - البدل Apposition

يعد البدل مع النداء أقل فاعلية في موضوع الاستعارة، ذلك أنه لا يملك تأثير القياس المنطقي للتعبيرات الإشارية، ولا التضمين المراوغ في أحسن حالاته، فالبدل يعد منهجا واضحا لإحلال تعبير محل تعبير آخر، إنه يملك ميزة المباشرة، وعيب كينونة الوضوح الزائد، وأكثر أنواع البدل انتشارا هو البدل البسيط Simple سواء باستخدام الفاصلة معه، أو دون استخدامها، مثال على ذلك:

The Noble ruin of her magic , Antony .

- النبيل المفلس من سحرها . أنطونيو .(٢٣)

٤ - النداء Vocative

على الرغم من المذاق البلاغي المؤثر للنداء ، فإنه يعد أقل الأنواع السابقة فاعلية في إحلال الاستعارة محل التعبير الحقيقي، لأن نطاق الكلمات التي تستخدم في النداء سواء أكانت أشياء أو أشخاصا محدود جدا، ولذلك فإن النداء يفتقد الأصالة في هذا الموضوع مثال على ذلك:

O , forester divine .

- أوه، أيها المقدس الساكن الأحراش.

الاستعارة باستخدام فعل الكينونة: Verb To Be

يعد فعل الكينونة أكثر الأساليب المباشرة لربط الاستعارة بتعبيرها الحقيقي، وربما يكون لهذا السبب أقل الأساليب استخداما في الاستعارة، وصيغة (A هي B) هي أكثر صيغه بساطة، لكن هناك صيغ أخرى له شديدة التنوع.

إن عيب صيغ فعل الكينونة وضوحها الشديد، ولذلك فإنها لا يمكن أن تتكرر في قصيدة واحدة، أو في فقرة إلا إذا كان ذلك مقصودا كجزء من التأثير البلاغي (في الابتهالات مثلا). من ناحية أخرى فإن هذا الوضوح الشديد يجعلها ذات نغمة مسيطرة.

إن أبسط صيغة لها هي مع الفعل المضارع (A هي B)، وهي أكثر الصيغ مباشرة وانتشارا، وقد كان شكسبير وسبنسر ودون مغرمين بها.(٢٤)

The Man is Wolf .

- الرجل ذئب.

والصيغة الأخرى لهذا النوع من الاستعارة هي (A هي B of C)، وهي تحتوي على استعارة مزدوجة، والاستعارة في هذه الحالة ترتبط بتعبيرها الحقيقي من ناحية ، وبالتعبير الثالث من ناحية أخرى بواسطة الأداة (of)، أو (الإضافة) أو (الملكية) أو بعض الحروف الأخرى مثل (To و In) ، وهذا النوع يسمى بالربط الإضافي الذي يشكل استعارة مزدوجة في كلمة واحدة. وإنه من الكافي هنا أن نقول إن نمط الربط الإضافي (B of C) ليس واضحا بنفسه كي يمكن تخمين تعبيره الحقيقي من العلاقة الاستعارية بين B و C، ومن ثم يكونا متعادلين في ارتباطهما ب (A) ومثال على ذلك:

For Wisdom is the Property of the Dead .

- الحكمة هي سمة الميت.(٢٥)

تتحدث بروك روز بعد ذلك عن الاستعارة المقلوبة في صيغة فعل الكينونة، وتقرر في البداية أن التعبير الحقيقي يأتي دائما قبل الاستعارة في حالة

استخدام فعل الكينونة ، لكن هناك نوعا من الاستعارات يتغير فيه هذا النظام مثل استعارة سبنسر (هذه السفينة ، هذه الشجرة، هذا الحيوان الحقير، كل أولئك هم أنا)، وهي ترى أن تغيير الترتيب لا يجعل هناك فارقا كبيرا، فالاستعارة التي تأتي أولا ربما تكون أكثر إلغازا في اللحظة، لكن التعادل الذي يأتي بعد ذلك فورا، وفي صورة مباشرة يجعل هذا التأثير أشد قوة، وترى بروك روز أن الصيغة المقلوبة (B هي A) يمكن أن تعطي نغمة مختلفة مع ذلك، إننا نلاحظ أن الجو المسيطر للصيغة يتجه لأن يكون ذات طابع وعظي، وعندما تأتي الاستعارة لأسباب لا علاقة لها بالقلب الأسلوبي، فإن التأثير يكون تفسيريا، أو وعظيا بصورة زائدة.(٢٦)

استعارة الربط الإضافي The Genitive Link

الفارق الرئيس بين هذا النوع من الاستعارة والأنواع الأخرى هو أن الاستعارة هنا لا ترتبط بالضرورة مع تعبيرها الحقيقي، لكن قد ترتبط بالتعبير الثالث (A = The B of C)، ويخبرنا الربط أن التعبير الاستعاري يرتبط بشخص ما، أو شيء ما، أو بشيء مجرد، أو يأتي منهم، أو يكون بعيدا عنهم، أو يكون موجودا فيهم، أو ينتسب إليهم، ومن خلال علاقة الانتساب أو المصدر يمكن تخمين ماهية التعبير الحقيقي غير المشار إليه، كما في حالة الاستبدال البسيط، لكن مع بعض المساعدة الإضافية (منزل قلبي - يعني الجسد).

وعندما تكون العلاقة بين (B) و (C) ليست قوية تماما، أو تكون ذات دليل ذاتي يمكننا من تخمين (A)، فإنه يمكن للصيغ الإشارية التي تحدثنا عنها قبل ذلك أن تخبرنا بهذه العلاقة، ففي جملة (إنها ينبوع الرحمة She is the Fountain of mercy) الإشارة إلى التعبير الحقيقي (She)، أما في جملة (The Fountain of mercy) فإنها يمكن أن تكون أي شخص، أو أي شيء، واستعارة الربط الإضافي

يمكن أن تمزج علاقتين استعاريتين في الكلمة نفسها بالتعبير الحقيقي المذكور، أو غير المذكور (الجسد ، هي) من ناحية، وبالتعبير الثالث الذي ترتبط به الاستعارة (القلب، الرحمة) من ناحية أخرى. إن استعارات الربط الإضافي هي أكثر الاستعارات وجودا بين الاستعارات الاسمية، حتى أنها أكثر من استعارات الاستبدال البسيط.(٢٧) هذه العلاقة الإضافية أو المصدرية بين الاسمين هي أساسا علاقة فعلية، إنها باستخدام الحرف (of) أو أية أداة ربط أخرى ترمز إلى فكرة فعلية يمكن التعبير عنها فعليا، ويتغير الاسم غير الاستعاري بشكل غير مباشر إلى شيء آخر بواسطة الاسم الاستعاري، كما تغير الاستعارة الفعلية الاسم إلى شيء آخر مثل (الورود تنمو في خديها) فالورود تحل محل فكرة (وردي) والشذا والنسيج والخدود تصبح (حديقة)، وهكذا يصبح الالتواء في التعبير ميزة، لأننا نكون أقل إدراكا لها عن جملة (خداها حديقة) التي تبدو مدعاة للسخرية.

إن العنصر الاستعاري هو بوضوح اسم، أما الفعل عندما نعبر به، فلا يكون بالضرورة استعارة (الورود تنمو فعلا، وأي شيء يمكن أن ينمو في الوجه مثل الشعر) لكن الفعل يزاد كوصلة إضافية يمكن أن تكون استعارة، أو لا تكون (الورود تنمو في خديها، فتنمو استعارة في علاقتها بالخدين) إن العلاقة الاستعارية هي بين الورود والخدود، ويمكن أن تحدث دون استخدام الفعل (الورود في خديها ، ورود خديها).

إذن فاستعارة الاسم لها تعبير حقيقي (A) يمكن أن يشار إليه مرتبطا بصيغة أو بأية وسيلة أخرى (A is the B of C)، أو لا يشار إليه (وهنا يمكن تخمينه). هذه العلاقة الإبدالية بين B و C تعرض نوعا واحدا من أنواع الربط الإضافي، وهناك نمط آخر لا يكون به تعبير حقيقي يمكن معادلته أو تخمينه، وتكون فيه (B) مطابقة لـ (C) بواسطة الإضافة (نار الحب) فالحب هو النار، والإضافة استخدمت هنا مثل البدل ، وفي بعض الأحيان لا تبدو العلاقة

واضحة، فجملة (ورود خديها) على سبيل المثال تبين أن الورود يمكن أن تكون الخدين نفسها.

وطبقا للاختلاف المعقد والغامض لهذه العلاقة المتطابقة، فإن لدينا استعارة النسبة المحض التي تقسم فكرة واحدة إلى اثنتين: شيء أو شخص أو تشخيص، وموضوع ينسب إليها مثل (عيون القلب) (يد الله) (قناع الحب). هذه النسبة ليست متطابقة مع التعبير المرتبط بها، لكنها تعرضه من وجه واحد (القلب في قدرته على الرؤية)، وباستخدام التجريدات التي يمكن تشخيصها personified abstractions مثل الحب أو الموت، فإننا نقترب فعلا من علاقة مطابقة مثل (نار الحب) (قناع الموت هو الموت نفسه).

أما نقطة الضعف الرئيسة في استعارة الربط الإضافي هي أن الأدوات النحوية نفسها هي التي تستخدم للتعبير عن معظم هذه العلاقات المختلفة، وهي لذلك مرنة، وهذه المرونة هي التي تجعل العلاقة واضحة وليست دقيقة، لكن هذه المرونة يمكن أن يساء استخدامها بالطبع. إن الأدوات النحوية الشكلية لها هي:

١ - الحرف (OF) أو ما يماثله: ورود خديها / The roses of her cheeks . her cheeks , roses .

٢ - الحروف الأخرى ، والفعل + الحرف: الورود في خديها The roses in her cheeks / The cloak flung by death .

٣ - صفة الملكية: Their roses .. .. cheeks / الخدود .. .. ورودها / death .. .. his cloak .

٤ - فعل الامتلاك والإعطاء والإنتاج: خداك ينبتان الورود your cheeks grow roses / death has a cloak .

وفي الوقت نفسه، فإن هناك علاقتين استعاريتين مختلفتين أساسا بين التعبيرين المرتبطين، وكل علاقة يمكن تقسيمها إلى نمطين رئيسين:

أ – صيغة ذات تعبيرات ثلاثة حيث يكون فيها (A = B of C)، و (A) يمكن ألا يشار إليها مثل (منزل قلبي The Hostel of my heart ، وورود خديها The roses of her cheeks) أو أن يشـــار إليها مثل (إنها ينبـــوع الرحمـــة She is the fountain of mercy ، طير الوقواق هو رسول الربيع The cuckoo is the messenger of spring)

ب– الصيغة ذات التعبيرين : (The B of C) حيث يكون فيها B = C ، و C هي نفســـها تعبير حقيقي سواء أ كانت مع إضافة بدلية appositive genitive تعـــبر عن تطابق B مع C (نار الحب The Fire of love)، أو مع نسبة محـــــض يكـــون التطابق الأساسي فيها أقل ظهورا مثل (قناع الموت The cloak of death .).[٢٨]

الاستعارة الفعلية :

إن الفرق الأساسى بين الاستعارة الاسمية والاستعارة الفعليـــة هـــو فـــي مسألة الوضوح، فمع الاسم يطلق على A أنه B ، وتختلف درجة الوضوح طبقـــا لطبيعة الربط بينهما، لكن الفعل يغير اسما إلى آخر بواسطـــة التضمين، وهـــو لا يحل بوضوح محل فعـــل آخر. [٢٩]

وهناك فرق آخر بينهما في أننا عندما نستخدم الاسم استعاريا، فإننا نجرد مجموعـــة من السمات المعينة التي يمتلكها، ونترك غيرها التي قد لا تكون مفيدة لنا، على سبيل المثال عندما نقول (ورود خديها) فنحن نفكر فقط فـــى العبـــير و الوردية والنعومة، ولا نفكر في الأشواك أو الأوراق أو الصفرة أو الحمرة القاتمة، وهكذا يصبح التعبير الاستعاري (هنا الاسم) حاملا لصفة أو أكثر.[٣٠] وهذا مـــن وجهة نظرها في استعارة الاسم فقط.

تثير بروك روز بعد ذلك بعض القضايا المتصلة بالاستعارة الفعليـــة مثـــل فكرة التشخيص، أو كيفية التعامل مع الاستعارات التي تنسب صفة ما إلى قـــوى

خـفية، أو ما يسمى بالاستعارات الدينية، وتتحدث أيضا عن اســتعارات الأفعــال التي تحول الأشخاص إلى أشياء مثل (إنه يشرق) أو الأشــخاص إلى حـيوانات مــثل (إنه ينبح) وترى أن هذا النوع أقل شاعرية، وكذلــك الاســتعارات التــي تحول الأشياء إلى أشياء أخرى.

ثم تنقل عن جيوفري أوف فينساوف قوله: إن الفعل يكون استعارة بحسب ارتباطه بالفاعل، أو ارتباطه بالمفعول به، أو ارتباطه بكليــهما معــا.[٣١] وهــو التقسيم نفسه الذي تحدث عنه عبد القاهر فيما سنعرضه له بعد قليل، وتتحدث بعد ذلك عن الاستعارة في الأفعال المساعدة، وهو موضوع له خصوصيته في اللغــة الإنجليزية، أما آخر الموضوعات التي تطرحها في سياق الحديث عــن اسـتعارة الفعل فهو الاســتعارة المركبة من استعارتين إحداهما فعلية والأخرى اسمية، وهو موضوع معقد وواسع كما تراه، لكنه يتحرك في الإطــار النحــوي نفســه الــذي عرضت له قبل ذلك.[٣٢]

هــذا هو الإطار العام الذي تحركت فيه بــروك روز فــي أثنــاء بحثــها موضــوع "نحو الاستعارة"، وداخل هذا الإطار توجد لمحــات ذكيــة عــن القيــم البلاغية لكل تركيب على حدة من خلال نماذج شعريــة اســتقتها مــن الشعــراء الإنجــليز، واستغرقت في تحليلها الجزء الأكبر من الكتاب.

الآن نبحث عن التركيب النحوي للاستعارة في البلاغة العربية، ولعل عبد القاهر من أهم من التفتوا إلى الفروق التركيبية في الاستعارة علــى الرغــم مــن بعض الإشارات القليلة قبله إلى هذه الفروق، لكن عبد القاهر قسم الاستعارة فــي أسرار البلاغة إلى قسمين: استعارة اسمية، واستعارة فعلية، ثم قســم الاســتعارة الاسمية قسمين" أحدهما أن تنقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخــر ثــابت معلوم، فتجريه عليه، وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصــوف ، وذلــك قولك رأيت أسدا ، وأنت تعني رجلا شجاعا ، وعنت لنا ظبية وأنت تعني امــرأة، وأبديت نورا وأنت تعني هدى وبيانا وحجة وما شاكل ذلك، فالاسم في هذا كله كما

تراه متنـــاول شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه، فيقال إنه عني بالاســـم، وكنـــى عنه، ونقل عن مسماه الأصلي، فجعل اسما له على سبيل الإعارة والمبالغـــة فـــي التشبيه. (٣٣)

والثاني أن يؤخذ الاسم عن حقيقته، ويوضع موضعا لا يبين فيـــه شـــيء يشار إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم، والذي استعير له، وجعل خليفـــة لاســـمه الأصلي ونائبا منابة، ومثاله قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها. (٣٤)

ويضرب أمثلة أخرى لهذا النوع مثل "وعري أفراس الصبا ورواحلـــه" و "نعم مطية الجهل الشباب".

وأمـــا الاستعارة الفعلية فإنه أيضا يقسمها قسمين: الأول الاستعارة مـــن جهة الفاعـل، ومثاله: نطقت الحال بكذا، وأخبرتني أسارير وجهه بما في ضميره، والثاني من جهة مفعوله، وذلك نحو قول ابن المعتز:

جمع الحق لنا في إمام   قتل البخل وأحيا السماحا.(٣٥)

أما الاستعارة في الحروف ، فيصنفها السكاكي تحت باب الاستعارة التبعية التي يجمـــع معها أيضا الاستعارة في الأفعال ، يقول في تعريفه للاستعارة التبعية "هي ما تقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال والصفات المشتقة منها، وكالحروف بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه، والتشبيـــه يعتمـــد كـــون المشبـــه موصوفا، والأفعال والصفات المشتقة منها، والحروف عن أن توصـــف بمعـــزل، فهـــذه كلها عن احتمال الاستعارة في أنفسها بمعزل، وإنما المحتمـــل لـــها فـــي الأفعال والصفات المشتقة منها مصادرها، وفي الحروف متعلقات معانيها ، فتقـــع الاستعارة هناك، ثم تسري فيها، وأعني بمتعلقات معاني الحروف ما يعـــبر عنـــها عند تفسيرها مثل قولنا: (من) معناها ابتداء الغاية، و(إلى) معناها انتهاء الغايـــة، و(كي) معناها الغرض، فابتداء الغاية وانتهاء الغاية والغرض ليست معانيها، إذ لو كانت معانيها، والابتداء والانتهاء والغرض أسماء، لكانت هي أيضا أســـماء، لأن

الكلمة إذا سـميت اسما سميت لمعنى الاسمية لها، وإنما هي متعلقات معانيـها، أي إذا أفادت هذه الحروف معان، رجعت إلى هذه بنوع استلزام.(٣٦)

والجدل الذي يثيره السكاكي حول الاستعارة التبعية سواء أكانت في الأفعال أو في الحروف قائم حول فكرة أن الأصل في الاستعارة أن تكون في الاسم، فـإذا جاءت في فـعل أو حرف، فإنها تجئ من طريق التأويل، وكل شروحاته للأمثلـة في الاستعارة التبعية تحاول إبراز هذه الفكرة مثلا في كلمة (لعـل) فـي الآيـة الكريمـة "يا أيها الناس اعـبدوا ربكم الذي خلقكم ، والذين مـن قبلكـم لعلكـم تتقون"(٣٧)

وهذا الأسلوب هو الذي نهجته الكتب المتأخرة في افتراض متعلق جـرت فيه الاستعارة، وبتبعيته في الحرف مثل تعليق كتاب "جامع العبارات فـي تحقيـق الاستعارات" على الآية الكريمة "ولأصلبنكم في جـذوع النخـل" الـذي رأى فـي الاستعارة أنها تنبيه على اشتمال الشجرة على المصلوب، وكونها وعاء تحوطـه حياطة المكان الحاوي لما فيه.(٣٨)

كذلك تجد في هذا الكتاب الأخير حديثا عـن الاسـتعارة فـي الضمـائر ، وأسـماء الإشارة، يقول "واعلم أن الاستعارة الواقعة ضمائر وأسماء إشارة لـها حـكم ما تطـابقه من مرجع إن كانت ضميرا أو مشارا إليـه إن كـانت أسـماء إشارة ، والظاهر أنها كلها داخلة في التبعية ، فـإن الاسـتعارة فيـها باعتبـار الاستعارة فيما ترجع إليه، أو يقال: إنه لا يتجوز بها، فإن وضعها أن تعود على ما يراد بها من حـقيقة ومجاز، فإن قلت: رأيت أسدا يرمي فأكرمته، فضمير المفعول حقيقة ، لعوده على مفسره، وذلك وضعه، وإذا قلت: يا أيها الأسد الرامي بنبـل، مشـيرا إلى إنسان، فالضمير في قولك: الرامـي حقيقـة .. .. قـال السـيد الحموي : تردد شيخ مشايخنا شهاب الدين أحمد الغنيمـي فـي شمـول تعريـف الاستعارة الأصلية للضمائر وأسماء الإشارة، قال تلميـذه العلامـة نـور الديـن الشبرملسي : القياس جريان الاستعارة فيها، وأنها أصلية.(٣٩)

هذا هو الإطار الذي تحرك داخله بحث التركيب اللغوي للاستعارة عند القدماء، وهو إطار أشار إلى جوانب مهمة، أشار إلى استعارة الاسم وكيف تكون، واستعارة الفعل في علاقته بالفاعل أو المفعول، وأشار إلى استعارة الحروف، وقسم الاستعارة تبعا للتركيب اللغوي إلى نوعين: استعارة أصلية وهي التي تكون في الأسماء، واستعارة تبعية وهي التي تكون في الأفعال والحروف، وهو تقسيم ربما يكون غير ذات قيمة في بحث الاستعارة، فالقدماء عندما قسموا الاستعارة إلى هذين القسمين، فإن الذي كان يحركهم في ذلك هو فكرة البحث عن الوضوح الذي يجعل الاستعارة مكشوفة غير ملتبسة بغيرها من الأنواع البلاغية، لذلك افترضوا أنها لا تحدث إلا في الذوات التي هي المصادر أي الأسماء في اللغة، فإذا حدثت الاستعارة في الاسم فهي أصلية، وإذا حدثت في الفعل أو الحرف، فالواجب البحث عن أصل اسمي لها ترتد إليه، لذلك فإنها تبعية باعتبار حاجتها إلى تأويل اسمي، والملحوظ في حديث عبد القاهر عن الاستعارة في الاسم خاصة في النوع الأول منه أن هذه الاستعارة جاءت في تركيب فعلي "رأيت أسدا – عنت لنا ظبية – أبديت نورا" وهو يدرك لا شك الفرق الاستعاري بين هذا التركيب، وتركيب آخر شبيه مثل "قتل البخل، نطقت الحال" الذي يضعه في استعارة الفعل، لكننا في النهاية أمام تركيب واحد تختلف فيه بؤرة الاستعارة بحسب تعبير ماكس بلاك. لكن ما شأن التركيب الاسمي الخالص؟ هل تحدث فيه استعارة، إن بروك روز قد قبلت هذا التركيب كأحد أنواع الاستعارة، وإن رأت أنه أقلها استخداما بسبب وضوحه الشديد، فالتعبير الحقيقي فيه يكون بإزاء التعبير الاستعاري في صيغة واحدة، لكننا من ناحية أخرى نجد هذا التركيب هو أكثر التراكيب استشهادا به في بحوث الاستعارة الحديثة، وهو ما يدل على أن ملحوظة بروك روز ملحوظة خاصة، هذا التركيب الاسمي استقر في البلاغة العربية على أنه تشبيه، ثم تحددت أنواعه تبعا لاشتماله على عناصر التشبيه التي تصل إلى أدنى وجود لها في التشبيه البليغ، وقد وقف عبد القاهر أمامه حائرا،

فعده مرة استعارة، ثم قيد ذلك بقيد مهم "هو عدم دخول أداة التشبيه عليه بيسر، فجملة مثل "هو الأسد" و "هو شمس النهار" و "هو البدر حسنا" وأي موضع يذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف، يكون قابلا لدخول أداة التشبيه عليه، ولذلك يعد تشبيها، أما إذا استخدم التنكير في ذكر المشبه به، فإن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه، فلو قلت "هو كأسد" أو "هو كبحر" كان كلاما نازلا غير مقبول، كما يكون قولك "هو كالأسد" إلا أنه وإن كان لا يحسن فيه الكاف، فإنه يحسن فيه "كأن" كقولك "كأنه أسد" .. .. فإن غمض مكان الكاف وكأن، بأن يوصف الاسم الذي فيه التشبيه بصفة لا تكون في ذلك الجنس، وأمر خاص غريب، فقيل "هو بحر من البلاغة" و "هو بدر يسكن الأرض" و "هو شمس لا تغيب" وكقوله :

شمس تألق والفراق غروبها   عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن نسميه استعارة ، لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه، إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام، وتبدل صورته، فتقول "هو كالشمس المتألقة، إلا أن فراقها هو الغروب، وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف.[40]

والمحك الذي يلجأ إليه عبد القاهر للتفرقة بين التشبيه والاستعارة في هذا التركيب الاسمي محك غامض، فهو يضع في البداية التنكير أو التعريف في المشبه به فرقا بينهما، ثم يعود ليقرر أن التنكير الذي يجعل التركيب أقرب إلى الاستعارة قد يحتمل معه دخول أداة التشبيه عليه، ولذلك يلجأ إلى محك آخر، هو غموض تقدير التشبيه فيه، وهو محك أسلوبي غير قابل للضبط، لذلك فإن جل البلاغيين بعد عبد القاهر أهملوا هذا التركيب الاسمي في حديثهم عن الاستعارة، على الرغم من أن جرونيباوم قد أشار بصيغة الجمع أن العرب حين تقول" زيد أسد" فذلك استعارة.[41]

لكن باب النقاش لم يغلق بعد أمام هذا التركيب وأحقيته في الانتساب إلى الاستعارة، لقد أثارت بروك روز، وكذلك فرنر أبراهام في بحثه القيم عن المنهج

اللساني في بحث الاستعارة موضوع هذا التركيب، وكان الرأي أن وجود أداة التشبيه فيه Like - relation يدخله في باب التشبيه، أما حذف الأداة فإنه يجعله استعارة.[٤٢] وهو الرأي نفسه الذي طرحه عبد القاهر، وهو رأي له وجاهته، فالأداة تمثل حدا فاصلا بين شيئين يحتفظ كل منهما بكينونته واستقلاليته، أما حذفها فإنه يتيح لهذين الشيئين أن يمتزجا، ويدخل كل منهما عالم الآخر، وقد استشعر البلاغيون العرب فرادة هذا التركيب وخصوصيته داخل مفهوم التشبيه حين أطلقوا عليه مصطلح (التشبيه البليغ)، وكما رأينا فإن عبد القاهر قد عده تحت شروط معينة من أنواع الاستعارة.

شيء آخر يرجح هذا الرأي هو أن التراكيب الفعلية التي عرض لها عبد القاهر سواء أ كانت الاستعارة فيها داخل الاسم أم داخل الفعل، لا يمكن تبين الاستعارة فيها داخل السياق، فالتركيب يترجح بين أن يكون حقيقة أم مجازا، إلا إذا جاءت قرينة ترجح أحد الجانبين، أما في التراكيب الاسمية، فانحيازها للمجازية مستقر في التركيب نفسه دون النظر إلى السياق الذي ترد فيه، وهو الأمر نفسه الذي نجده في استعارة التركيب الإضافي التي لا تحتمل إلا المجاز.

لقد وجدنا عند عرض التركيب اللغوي للاستعارة عند بروك روز والبلاغيين العرب أنهم يستخدمون الأدوات نفسها تقريبا في الحديث عن الاستعارة مع مراعاة الفروق الدقيقة التي تميز لغة عن أخرى، لقد وجدنا حديثا عن الاستعارة التي هي بمفهوم بروك روز، وكذلك العرب نوع من استبدال كلمة مكان أخرى، وفي ظل هذا المفهوم فإنهم بحثوا عنها في الأسماء والأفعال والحروف بحسب تقسيم النحويين العرب لأنواع الكلمة.

الاستعارة واللسانيات:

دخل الاهتمام بالجملة الاستعارية في حقل اللسانيات في فترة متأخرة نسبيا عن نشأة هذا الحقل، لقد عد الاهتمام بالاستعارة جزءا من علم الدلالة الذي نظـــر إليه في البداية على أنه عصي على التحليل الوصفي الذي كان يطمح إليه مؤسسو اللسانيات المعاصرة، وأصدر بلومفيلد حكما أسهم في تأخير نشأة علم الدلالة كأحد الفروع المهمة في اللسانيات، قال فيه "إن دراسة المعنـــى المعجمـــي، وبالتـــالي السيمانتيك تعد خارج المجال الواقعي لعلم اللغة"(٤٣)، وحيـــن تجـــاوز اللســـانيون المتأخرون هذا الحكم ، وبدؤوا يصدرون الدراسات الجادة في حقل الدلالـــة منـــذ منتصف الخمسينيات، بدأت الإشارات تظهر عن الاستعارة كأحد الأسباب المهمـــة في عمليات تغير المعنى أو تعدده. (٤٤)، لكن الاهتمام الأوسع بالاستعارة داخل حقل الدلالة وبالتالي داخل اللسانيات بدأ في النصف الثاني من السبعينيات حين أولـــى علماء اللغة اهتماما أكبر ببحث اللغة التصويرية في مقابل اللغة الحرفيـــة ، كـــان هناك حذر شديد في العشرين عاما التي سبقت منتصف السبعينيات في الاقـــتراب من دائرة اللغة التصـــويرية حتى في حقل الدلالة، لكن هذا الحقـــل بـــدأ يرصـــد ظـــواهر كثيرة في اللغة مثل الاستعارات الميتة، والكلام غير المباشـــر، وغـــير ذلك من ظواهر انبثقت منها جملة من الأسئلة لم يكن من الممكـــن البحـــث عـــن إجابات عـــنها خارج اللسانيات ، أسئلة مثل : كيف يمكن أن تقـــول جملـــة لـــها معنى، ثم يفهم المتلقي لها معنى آخر؟ وهذا هو جوهر الجملة الاســـتعارية الـــذي يفرقـــها عن الجملة الحرفية، وقد استتبع ذلك البحث عن علاقة الاستعارة بالكذب، وتحديد دور السياق في فهم الجملة الاستعارية، كما استتبع الحديث عن الفـــروق بين المعنى الحرفي والمعنى التصويري، وفي أثناء ذلك بحثت الاســـتعارة الميتـــة

لتوضيح الدور الذي تقوم به في إثراء اللغة، وفي التغيرات الدلالية التي تكاد أن تكون يومية في أية لغة.

ولقد كان هناك اتجاهان رئيسان في بحث الاستعارة داخل حقل اللسانيات: الاتجاه الأول يرى التعامل مع الجملة الاستعارية على أنها حالة خاصة في الكلام، لا يمكن تطبيق استراتيجيات البحث اللساني في الجمل الحرفية عليها، والاتجاه الثاني يرى عكس ذلك، فالمشكلات التي تثيرها الجملة الحرفية لديه لا تقل صعوبة عن المشكلات التي تثيرها الجملة الاستعارية، وإذن فالبحث عن استراتيجيات خاصة لفهم الجملة الاستعارية لن يسهم في حل كثير من المشكلات التي تثيرها، والأولى لدى هذا الاتجاه تطبيق استراتيجيات واحدة على كلا النوعين من الجمل.

إن بذور الاتجاه الأول تعود إلى تشومسكي، عندما عرض مثاله الشهير الذي يحتوى على استعارة:-

- Colorless green ideas sleep furiously .

- الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام غاضبة.

وكان سياق حديثه عن الجمل المقبولة تركيبيا، لكنها غير مقبولة دلاليا، على الرغم من "أن بعض الشعراء قد أكدوا أن الجملة يمكن أن تكون مقبولة لديهم"، [٤٥] هذا يعني أن تشومسكي كانت لديه شكوك حول قدرة اللسانيات على تحليل بعض الاستعارات، وهو موقف شاركه فيه باحثون آخرون مثل ج. م. سادوك J. M. Sadock ، الذي يرى أن درس الاستعارة يبعد عن حقل اللسانيات التزامنية Synchronic Linguistics ، وهو يرى أن المبادئ التي تتحكم في الاستعارة تنتمي إلى علم النفس، وليس إلى دائرة اللسانيات، والجملة الاستعارية - حسب رأيه - تشبه مثالا هو "مجموعة من النجوم في السماء المظلمة، يراها شخص ما على أنها ثور "وهو مثال غير لساني يمكن أن نقيس عليه الجدل الدائر حول إنتاج الاستعارة وفهمها.[٤٦]، ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين الاستعارة وعمليات

الإدراك والتخيل وطـرائق تحليل الذاكرة، كما توجد هـــذه الصلـة أيضـا بيـن الاستعارة من ناحية وبعض المثيرات البارزة، والاستجابات الفعلية التي تتم وفقـا لها من ناحية أخرى داخل حقل علم النفس السلوكي.

لكن سادوك الذي أبعد الاستعارة، وكل الأنواع التصويرية الأخرى من حقل اللسانيات يؤكد على أن ذلك لا يعني أنها غير ذات صلة بهذا الحقل، فـإذا كـانت هناك مشكلات أساسية في عمليات إنتـاج الاسـتعارة واسـتقبالها، وحـل هـذه المشكلات يقع خارج دائرة اللسانيات، فإن الجملة الاسـتعارية المنجـزة تعـد - حسـب رأيه - أهم المصادر المنتجة للمتغيرات الدلالية، وإعادة تحليل الصور في الكلام كإشارات حرفية هو بوضوح أحد أهم المصادر للتغيرات الدلالية.(٤٧)

هذا التشكيك في الاستعارة ينطلق أساسا من فرضية أن هنـاك تصادمـا ظاهرا - في الاستعارة وكذلك الأنواع التصويرية الأخرى من الكلام - بيـن مـا يقال، ومايهدف إليه، فالصور غير الحرفية Nonliteral figures تختلف عن الكـلام الحـرفي في الطريقة التي يتصل بها القول مع قصد المتكلم، فإذا كان هناك تطابق بين القـول والقصد في الكلام الحرفي، فإن هذا التطابق لا وجود له فـي الكـلام غير الحرفي، ففي المفارقة مثلا يقول المتكلم شيئا، ويقصد إلى عكسـه تمامـا ، وفي الاستعارة فإن غير المباشرة Indirection هى أحدى أجزاء الملفوظ الاستعاري التي قد تختفي في التركيب الاسمي، كما في مثال أرسطو (غـروب الحيـاة The Sunset of life)، أو تظهر بشكل جلي كما في مثال (الحياة لها شـروق وغـروب Life has a sunrise and a sun set)، لكن الغموض أو الوضوح في المثالين متفقـان في أن كليهما يوصلان في أسلوب غير مباشر ما يمكن إيصاله مبـاشرة حسـب أعراف اللغة.(٤٨)

هذا التصادم الظاهري بين القول الملفوظ وقصد المتكلم أثار عنـد بعـض الباحثين سؤالا حول علاقة الاستعارة بالكذب، فالكذب أيضا يحـدث فيـه تصـادم ظـاهر بين القـول والقصد، فهل يمكن عد الاستعارة أحـد أشكـال الكـذب؟ إن

الجملة الاستعارية – حسب رأي ماكس بلاك – تظهر على أنها تحاول إثبات شيء ليس في الواقع كذلك، وهذا يجعل مستخدم الاستعارة يبدو كإنسان كاذب أو محتال، فعندما تقول جولييت لروميو (الضوء الذي يشع يأتي من عينيك)، فهي بالتأكيد لا تعني أن عينيه تضيئان الحجرة، أو عندما يقول والاس ستيفنز أن (القصيدة هي طائر الحجل) فإنه لا يمكن أن يعنى حقيقة أنها ترفرف بجناحين، أو أن لها ذيل طويل، لأن مثل هذه الأشياء كاذبة ومنافية للعقل بشكل واضح، لكن مثل هذا الكذب ومنافاة العقل هو جوهر الاستعارة، وفي غيابهما فإنه لا تكون لدينا استعارة، بل مجرد ملفوظ حرفي.(٤٩)

وهذا التأكيد الواضح على أهمية الكذب داخل الاستعارة تقابله محاولات جادة عند البلاغيين العرب في إبعاد الكذب عن الاستعارة، فالاستعارة عند القزويني تفارق الكذب بالبناء على التأويل، ونصب القرينة على إرادة خلاف الظاهر(٥٠)، فالكذب لا تأويل فيه، وقائله لا ينصب قرينة على إرادة خلاف الظاهر، بل يبذل المجهود في ترويج ظاهره، والاستعارة أشد احتياجا من المجاز المرسل مثلا في بيان الفرق بينها وبين الكذب لسببين: أحدهما أنها مشتملة على دعوى اتحاد المشبه والمشبه به، مع تغيرهما في نفس الأمر وهذا عين الكذب، لو لم يكن التأويل بخلاف المرسل، إذ ليس فيه هذه الدعوى، وثانيهما أن البعد بين المعنيين المجازي والحقيقي في الاستعارة أزيد من البعد بينهما في المرسل، لأن علاقة الاستعارة ضعيفة بالنسبة إلى علاقة المجاز المرسل، إذ المشابهة أضعف علائق المجاز، وزيادة البعد بين المعنيين تقتضي زيادة المشابهة بالكذب.(٥١)

إذن فالتأويل أو القرينة عند البلاغيين العرب يمنعان انتساب الاستعارة إلى الكذب، هذا يعني أن القرينة تقود المتلقي إلى المعنى الحرفي الكامن في مكان ما داخل الجملة الاستعارية، لكن لماذا يلجأ الإنسان إلى استخدام الاستعارة ، وفي قدرته أن يعبر عن معناه حرفيا دون تأويل أو قرينة؟ هنا تجد إجابات كثيرة في

البلاغة العربية، يمكن تلخيصها في اثنتين: الأولى لأجل المبالغة، والثانية لأجل التزيين والزخرفة.(٥٢) وكلتا الإجابتين خطر على فهم الدور الحقيقي الذي تقوم به الاستعارة في الكلام، فالاستعارة، وإن كانت تحمل قدرا من المبالغة، فإن هذا الملمح ليس له تأثير كبير على الكيفية التي يتم بها تلقي الاستعارة، أما موضوع الزخرفة والزينة فقد وجه إليه مصطفى ناصف من النقد الكفيل بهدم هذه الفكرة.(٥٣)

وإذن فدور القرينة - حسب أقوال البلاغيين العرب دور مهم، فهي تشبه ضوءا يلقيه منتج الاستعارة ليمنع إيراد المعنى الظاهر في الجملة، وليقود المتلقي إلى الغرض الأصلي في ذهن المنتج، أي ليمنع ارتباط الاستعارة بالكذب، ويعطي الجملة الاستعارية شهادة براءة. لكن القرينة أو السياق بحسب المصطلح الحديث تضيف إلى هذا الدور دورا آخر يكون فيه السياق أحد الوسائل المهمة في فهم الاستعارة نفسها بعيدا عن المعنى الحرفي الذي يتجذر فيها ، فهناك - كما يقول ماكس بلاك - جمل استعارية تفهم بذاتها، وهناك جمل أخرى لا تفهم إلا من خلال سياق. (٥٤)، هذا الدور الإضافي يرتبط ارتباطا وثيقا بالتركيب اللغوي للاستعارة في البلاغة الغربية، فجملة مثل:

- The Man is Wolf .

تبدو قابليتها للفهم بعيدا عن السياق أكثر من جملة مثل (The fountain of mercy .) التي تتعدد فيها وجوه التأويل إذا لم ترتبط بسياق معين.

أما سادوك فإن علاقة الاستعارة بالسياق عنده تتحدد في إطار مشكلة مهمة في اللسانيات المعاصرة هي توضيح العلاقة بين الشكل Form والمعنى Meaning ، وهو يرى أن هذا التوضيح لن يتم إلا إذا فهمنا أولا - ولو بصورة حدسية - معنى الجملة في حالتها المفردة في اللغة في مقابل ما تستطيع هذه الجملة إيصاله إلى المتلقي، ومن أجل ذلك فإننا يجب أن نعرف الأشكال الاتصالية التي يستطيع الملفوظ Utterance إنجازها معزولا عن سياقه من خلال الاستخدام

الحرفي والعرفي للغة، والتي يستطيع إنجازها من خلال استخدام نوع أو أكثر من أنواع التصوير.(٥٥)

إن المقابلة بين الاستخدام الحرفي والعرفي للغة وبين الاستخدام التصويري لها هي النقطة المركزية في بحث سادوك، وحين يضرب أمثلة مثل (جون هو صخرة جبل طارق) التي يحاول من خلالها إنجاز تعريف حقائقي truth definition للجمل في اللغة، فإنه يبحث أولا عما إذا كان هذا النوع من الجمل صادق أم كاذب، وفي هذه الجملة فإن جون هو - استعاريا - صديق لا يتخلى عن أحد من أصدقائه، ولا يمكن وصفه حقيقة أنه تكوين جيولوجي في مدخل البحر الأبيض المتوسط، هنا كان للاستخدام التصويري اليد العليا في فهم هذه الجملة، لكن هناك أمثلة لا حصر لها تركيبيا ومعجميا لا يمكن الاختيار فيها بسهولة بين نسبة ما يريد الملفوظ إيصاله إلى المعنى العرفي أو إلى الاستخدام التصويري، وهي أمثلة يصعب معها تحديد: متى ينتهي المعنى، وتبدأ الصورة، ومثل هذه الأمثلة تعد عقبة في طريق اللساني الذي يهدف إلى صياغة مبادئ تربط المعنى بالشكل.(٥٦)

يعرض سادوك بعد ذلك عشرة معايير يرى بعض الباحثين أنها تميز الكلام الحرفي العرفي عن الكلام التصويري في عمليات الفهم المصاحبة للجملة، بينما يرى هو أنها أخطأت التمييز بين الجانبين، وهو لا يكتفي بعرض هذه المعايير، بل يوجه لها نقدا حادا، أما المعايير فهي:

١ - القابلية الإحصائية.

٢ - التابعية السياقية.

٣ - قابلية الترجمة.

٤ - قابلية إعادة الصياغة.

٥ - الإبداع.

٦ - قابلية التكرار.

٧ - اللاجدالية.

٨ - التفاعل مع النحو.

٩ - الاستواء.

١٠ - الاستجابة الملائمة.

ما يهمنا في هذا السياق هو المعيار الثاني الخاص بالتابعية السياقية، فالتعبير الملفوظ إذا أخذ تصويريا، فإنه يعتمد على السياق ، وأكثر من ذلك فإن المعرفة الخاصة بالمتكلم تلعب دورا في تحديد ما إذا كان الملفوظ الخاص سوف يُفسر على أنه يقصد إلى أن يكون له محتوى تصويري خاص أم لا، وسادوك يرى أن هذا المعيار لا يمكن استخدامه في تمييز الكلام التصويري عن الغموض الأصلي في الجملة، فالسياق يلعب دورا في تحديد أي المعنيين في التعبير الملفوظ يمكن أن يُقصد، والمتكلم يكون واعيا بهذا، ويستخدم معرفته في تأمين القصد الذي يريد له أن يُدرك .[٥٧]

إن سادوك يرى في الاستعارة أنها موضع التغير الدلالي في الكلام مع الأشكال التصويرية الأخرى ، يقول "إن هناك حقيقة لا تقبل الجدل هي أن اللغة التصويرية أحد أهم المصادر المنتجة للتغيرات اللسانية، وجزئيا فإن إعادة تحليل الصور في الكلام باعتبارها إشارات حرفية هي بوضوح أحد أهم المصادر للتغيرات الدلالية ، يؤكد ذلك أن كثيرا من المفردات المعجمية هي استعارات ميتة كانت في السابق استعارات حية.[٥٨]

وعلى الرغم من الحذر الذي تعامل به سادوك مع الاستعارة داخل حقل اللسانيات، وعلى الرغم من تمييزه بين المعنى العرفي الحرفي والمعنى التصويري، فإنه قد وضع يده على جملة من الإجراءات والجوانب التي أعادت النظر في كثير من المسلمات حول مفهوم الاستعارة.

وهناك باحث آخر يقف على الأرضية نفسها التي يقف عليها البروفيسور سادوك في النظر إلى الاستعارة، وهو البروفيسور فرنر أبراهام Werner

Abraham ، فهو يرى أن أي انتهاك للقواعد المختارة في اللغة يخلــق اســتعارة، لذلك فإن الاستعارة تحتاج إلى قواعد إضافية لفهمها في مقابل التعبـــير الحرفــي الذي لا يحتاج إلى هذه القواعد، والفرق الأساسي بين المعنى الحقيقــي والمعنــى الاستعاري عنده هو أن المعنى الحقيقي قابل للمعجمة، بينما المعنى الاستعاري لا يمكن تجســيده في معاجم لغوية لذلك فإن هدف بحــثه الأســاسي الذي عـنونه بـــ (المنهج اللساني في درس الاستعارة Approach to Metaphor . A linguistic) هو إنشاء علاقة دقيقة بين المعاني الاستعارية والمعجم.(٥٩)

لقد بدأ بتعريف الاستعارة على أنها نقل للمعنى، وهو تعريف يشمــل فــي رأيه الأنواع التصويرية الأخرى من تمثيل وتشبيه ورمز وغير ذلك، لكنه يحـــدده بأنه استخدام الكلمات في جمل ذات تكوين جيد، أو صياغة تركيبية في معنى غير حرفي.(٦٠)

يناقش في هذا البحث وضعية الاستعارة داخل السياق، ويطرح تساؤلا عن الكيفية التي يمكن بها التمييز بين الاستعارة والتعبيرات الهشة غير المتسقة التي بلا معنى، مثل تعبير تشومسكي الشهير، من أجل ذلك فإنه يطرح مجموعـــة مــن الاحتمالات التي وضعها جريس grice كي يمكن بها التمييز بين النوعيـــن، وهــي احتمالات تقع كلها داخل الحقل التداولي، ذلك أنها تهتم أساسا بالملفوظ الاستعاري في حالة انتقاله من المتكلم إلى المتلقي:

١- المتكلم يعرف أن المتلقي قد لمس معنى التعبير الذي لا يختلف كثيرا عن المعنى الذي ينسبه المتكلم إلى هذا التعبير.

٢ - المتكــلم يريد من المتلقي أن ينسب هذا المعنى للتعبير.

٣ - المتلــقي يعــرف أن المتكلم هو الذي تلفظ بالتعبير الذي تلقاه المتلقي.

٤ – المتكلم يعرف (أو يعتقد) أن المتلقي عندما أدرك التعبير، فإنه يعرف–أي المتلقي– (أو يعتقد) أن المتكلم يعرف معنى التعبير داخل السياق (أو يعتقد أنه يعرف ذلك).

٥ – عندما يدرك المتلقي التعبير ، فإنه يعرف (أو يعتقد أنه يعرف) أن المتكلم يعرف (أو يعتقد أنه يعرف) معنى التعبير داخل السياق.

٦ – يهدف المتكلم إلى أن المتلقي سوف يعرف (أو يعتقد أنه سيعرف) أن المتكلم يعرف (أو يعتقد أنه يعرف) معنى التعبير داخل السياق.

٧ – ما تم وصفه سابقا هو حالة معرفية لإدراك التعبير بين المتلقي والمتكلم ، لأن المتلقي يعتقد أن التعبير ينتمي إلى مجموعة من تعبيرات ذات وصف بنيوي ، يمكن أن تستجيب إلى قواعد لغة معينة تخلق عناصر هذه التعبيرات ، والمتلقي يعتقد أن قواعد هذه اللغة هي الأساس الذي يعرف من خلاله معنى التعبير.

٨ – في ظل الأحوال العادية ، فإنه يفترض أن :

أ – المتكلم يستخدم تعبيراته وفق قواعد اللغة .

ب – المتكلم يعتقد أن المتلقي يعتقد أن المتكلم يعتقد أن المتلقي يعرف معنى التعبير .

وأي انتهاك لهاتين الحالتين ، ينتج حالة من الحالتين التاليتين :

١ – سوء فهم : مثلا لو لم يستخدم المتكلم تعبيراته وفق قواعد اللغة، أو لو أن المتلقي يعرف أن المتكلم يعرف (أو يعتقد أنه يعرف) معنى التعبير ، في حين أن المتكلم يريد من المتلقي أن يعتقد أن المتكلم يعرف معنى تعبير آخر.

٢ – فهم : في حالة ما إذا كان المتلقي يلاحظ (أو يتوقع) الانحراف عن قواعد اللغة ، أو ما إذا كان المتكلم يعرف أن المتلقي يعرف أن المتلقي يعرف أن المتكلم لا يعرف معنى

التعبير نفسه ، بل معنى تعبير آخر .

في ظل هذا الاحتمال الثاني ، فإنه يمكن شرح كثير من حـالات التفكيك اللغوي التي تبدو ظاهرة في الشعر الحديث، إن الاستخدام الاسـتعاري يفـترض مسبقا أن المتلقي يعرف ما يقصد إليه المتكلم فـي التعبـير الاسـتعاري الـذي استخدمه ، أو ابتدعه. وعامة فإن هذا حقيقي لنمط من الاستخدام اللغـوي حيـث يكـون المتكلم فيه واعيا بمتلقي الاتصال، وتوقعاته المختلفة سواء في الخطاب أو في الرسائل أو في المحاضرات .. .. الخ ، ولو أخفق المتلقي فـي فـهم سـياق التعبير، فإنه سيحاول استعادة مزيد من المعلومات من المتكلم عن معنى التعبـير الذي استخدمه، أو أنه سيجري قياسا بين التعبير والبديل المحتمل له، واسـتخدام اللغة الاستعارية في الحوار أو الخطاب يمكن التحكم فيه لذلك من خلال مجموعـة من الاستراتيجيات، إن المتلقي في هذه الحالة يعتمد على نفسه في تمييز ما يمكن اسـتبداله في معنى التعبير المستخدم، وأكثر من ذلك فـإن عليـه اكتشـاف أن المتكلم كان يقصد إلى مثل هذا الاستبدال.(٦١)

لقد طرح فرنر أبراهام مجموعة من القضايا المهمة في بحثه مثل مناقشته لنظريات الاستعارة الأساسية: الاستبدالية والمقارنة والتفاعلية، كمـا افـترض أن العامل المهم في قابلية شرح ملفوظ هو درجة قبوله ، وبعـض النـاس يـرى أن القبول هو نوع من النحوية.(٦٢)، كما رأى أن مشكلة الاستعارة (لو عوملت على أنها انحـراف عن جملة القواعد اللغوية المختارة) يكون حلها في النظـر إليـها على أنها ظاهرة سياقية، بينما مشكلة المعنـى الحرفـي هـي مشكلـة المفـردة المعجمية في حالتها المعزولة، وهو هنا يختلف عن روميلهارت صـاحب الاتجـاه الثاني في النظر إلى الاستعارة الذي يرى أن مشكلات المعنـى الحرفـي لا تقـل صعوبة عن مشكلات المعنى الاستعاري، إن إحدى مشكلات الاسـتعارة فـي رأي أبراهام هي التمييز بين الملفوظ المنحرف عن قواعد اللغة، وغير المنحرف مـن ناحية، وبين الملفوظ ذي المعنى والملفوظ الذي بلا معنى من ناحية أخرى، ويرى

أن هناك علاقة متبادلة في الاستعارة بين خاصيتي (الانحراف) و (ذو معنــى)، فهذا الانحراف في رأيه هو دالة ذات معنى في حالة تفسيرها على أنها اســتعارة، وفي كلمة أخرى فإن هذه الدالة ستختبر لاحقا فيما يتعلق بنتائجها الممكنة اعتمادا على السياق اللفظي والحالي ، وما هو متوقع منها عادة.[٦٣]

يتحدث أبراهام أيضا عن موضوع السمات في الاستعارة، ويرى أن السمة الاستعارية المنحرفة إذا كانت ضعيفة من خلال كثرة استخدامها (أي أنها في هذه الحالة لن تكون ذات درجة قبول عالية)، فإن الاستعارة ستكون (أكليشيــه) أي استعارة مجمدة، وفي هذه الحالة يمكن التمييز بين الأكليشيه والإبداع الاســتعاري من خلال موضوع القبول ACCEPTABILITY .[٦٤]

ثم يناقش أبراهام بعد ذلك فكرة ماثيوس MATTHWS عــن أن انتــهاك القواعد اللغوية شرط ضروري لأي تفسير اســتعاري، ويقــول إن انتــهاك هــذه القواعد من المحتمل أن يكون كافيا، لكنه بالتأكيد ليس شرطا ضروريــا للمســند الاستعاري، إن مقياس ماثيوس ليس منيعا، إنه توضيح كاف للمسند الذي يستخدم فعل الكينونة كما في المثالين التاليين (الرجل ذئب) و (الصوت بارد)، مثل هذه الانتهاكات ليست قابلة للتحديد ضمن شروط القواعد اللغوية، لكنها تتحــدد فقــط ضمن شروط القبول الأكثر عمومية، وأبعد من ذلك فإن شروط مــاثيوس ليســت كافية، لأن التوقع والسياق (العوالم البديلة) تحدد نوعــا مــن إعــادة التنظيــم للسمات الدلالية، وبالتالي للعناصر الدلالية المقبولة أو غير المقبولة.[٦٥]

أما الاتجاه الثاني في موضوع علاقة الاســتعارة باللســانيات فــيرى أن التمييز بين الجملة الاستعارية، والجملة الحقيقية الحرفية شيء صعب، فالاستعارة ظاهرة شديدة الشيوع في لغة الحياة اليومية ، بحيث إن كثيرين يستخدمونها فــي كلامهم دون إدراك تام، أو دون وقفة خاصة أمامها، يحدث أحيانا أن يذهب إنسان مكتبة عامة لتصوير كتاب، فيجد آلة التصوير معطلة، فيطلب من أمين المكتب أن يعيره الكتاب مدة ساعة ليقوم بتصوير ما يريد في الخارج، ثم يعــود دون حاجــة

إلى تسجيل ذلك، ويوافق أمين المكتبة، لكن هناك مشكلة أن بالكتاب قطعة معدنية ممغنطة، تجعل الكتاب يحدث صوتا عند الخروج به من الباب، وأمين المكتب لا يريد أن يلفت النظر إلى هذا، فيقول لهذا الإنسان "تعال وخذه من خلال الشباك حتى لا يصيح الكتاب" وينتهي الموقف، لقد أنتج أمين المكتبة في هذا الموقف استعارة دون تفكير مسبق فيها، وتلقاها هذا الإنسان دون وقفة خاصة أمامها، مثل هذه المواقف التي تُنتج فيها استعارات في الحياة اليومية كثيرة، ودافيد روميلهارت DAVID E . RUMELHART أحد اللسانيين الذين لا يفرقون بين الجملة الاستعارية، وغيرها من أنواع الجمل الأخرى، لا يرى فرقا أيضا في عمليات الفهم التي تصاحب الاستعارة عن غيرها، وهو يقف بهذا على النقيض من موقف سادوك الذي أقام مقارنة بين ما أسماه الاستخدام التصويري للغة، والاستخدام العرفي لها ، وقد أقام مقياسا متدرجا وضع فيه اللغة التصويرية في طرف ، واللغة الحرفية العرفية في الطرف الآخر.(٦٦)

لكن روميلهارت يرى صعوبة في تقسيم معنى الملفوظ UTTERANCE MEANING إلى نوعين : نوع يكون ذا دلالة حرفية، والآخر ذا دلالة تصويرية، ومن أجل تأكيد هذه الصعوبة فقد اتجه في بحثه وجهتين: الأولى في العمليات التي يتم من خلالها اكتساب الأطفال للغة، وهو يرى أن اللغة التصويرية تظهر في كلام الأطفال منذ بداياتهم المبكرة، والثانية في محاولة تطوير نموذج نفسي جدير بالقبول لفهم اللغة ذات الدلالات الحرفية من أجل استخدامه بعد ذلك في فهم اللغة التصويرية.(٦٧)

في الوجهة الأولى فإنه يعرض موقفا بين زوجته وابنه ذي الثمانية أعوام، حيث يقول الابن لأمه (Hey , Mom , my sock has a hangnail ، لقد تمزق جوربي بحيث أصبح مثل قطعة الجلد المتدلية في الظفر)(٦٨)، وقد ردت عليه الأم بسرعة قائلة: لا تقلق. سوف أصلحه عندما نعود إلى البيت، يقول روميلهارت: إن هذا الموقف مر بسرعة، وإنه كان الوحيد الذي أدرك أن استعارة جديدة قد

تخلقت في حديث الأم والابن، وأن إنتاجها، وكذلك فهمها تم دون وعي إضافي من كلا الطرفين، ومثل هذا الاستخدام الحر والسهل للكلمات في صيغ غير حرفية شيء عادي، ولا يتطلب ملاحظة خاصة، لأنه ليس شيئا خاصا، فالأطفال والكبار ينتجون الاستعارة، ويفهمونها بشكل دائم.(٦٩)

فكيف ينتج الأطفال الاستعارة؟ وكيف يفهمونها؟ إن هناك حقيقة أن الأطفال لا يعون تماما كيف يمكن استخدام المفردة المعجمية في حقلها الملائم، ومن المفترض أنهم يتعلمون هذه المفردة في حالة استخدامها في حقل معين مع الإشارة إلى مجموعة من الحالات التي يمكن تطبيق هذه المفردة عليها، وفي هذا الحقل الذي تستخدم فيه المفردة استخداما أساسيا، فإن بعض السمات فيها تبدو وثيقة الصلة بالموضوع، وبعضها الآخر لا يكون وثيق الصلة، وعلى ذلك فإن الطفل يبدو كما لو كان يستخدم المفردة استخداما حرفيا، وعندئذ فإنه سيطبق المفاهيم التي تعلمها بأسلوب غير معياري، وسيبدو في هذه الحالة كأنه ينتج كلاما غير حرفي، أو كلاما استعاريا، خذ مثلا كلمة (OPEN افتح ، مفتوح)، فإن الطفل يتعلمها في سياق (القول)، وفيه يكون فم الطفل مفتوحا، وهو في هذه الحالة يطبق هذا المفهوم على حالات أخرى شبيهة مثل الباب والشباك ، وهو هنا يظهر فهما كاملا للكلمة، لكن لو استخدم الطفل كلمة (OPEN) بمعنى (TURN ON).(٧٠) مع جهاز التليفزيون مثلا أو مع الإضاءة ، فإن الطفل سيستخدم هنا استعارة، وفي الحالتين: حالة الاستخدام الحرفي لكلمة (افتح) أو الاستخدام الاستعاري لها، فإن عملية تطبيق الكلمة على الحالات المختلفة تبدو عند الطفل واحدة، وأعني بها إيجاد أفضل كلمة أو مفهوم لإيصال الفكرة إلى العقل، لذلك فإن إنتاج الطفل للكلام الحرفي أو غير الحرفي ربما يتبع نفس الإجراءات.(٧١)

أما الوجهة الثانية فإنه يبدؤها بتقرير حقيقة ارتباط الاستعارة بالكذب، ويتساءل: كيف يتحول الكذب إلى أن يصبح لغة عادية؟ لكنه لا يجيب عن هذا

السؤال من خلال تحليل اللغة الاستعارية، بل من خلال تحليل اللغة الحرفية، ويعد هذا التحليل في رأيه أساسا مهما لفهم الاستعارة.

إنه يبدأ بعرض المنهج التقليدي في التحليل الدلالي الذي يرى أن الوصول من خلاله إلى معنى الجملة النهائي يتم من خلال البحث عن معنى كل مفردة معجمية LEXEME على حدة ، ثم البحث عن مجموعة من القواعد تمتزج بواسطتها معاني المفردات المعجمية لتشكل معنى الجملة، وبالمثل فإن في أي خطاب تمتزج معاني الجمل المفردة لتشكل معنى الخطاب MEANING of DISCOURSE ، والمعاني التي تتكون تدريجيا بهذه الطريقة هي معاني حرفية للجملة أو الخطاب، لكن من المشكوك فيه أن يستطيع مثل هذا المنهج أن يمدنا بتفسير معقول للمعاني المراد توصيلها CONVEYED MEANING في كثير من الجمل الإنجليزية، مثلا في حالة الجملة التي قالها ابنه، لا يستطيع هذا المنهج أن يفسرها تفسيرا وافيا، فالواقع أنه لا توجد قطعة حقيقية من الجلد مدلاة من جورب ابنه ، ولذلك نقول إن المعنى الحرفي لمثل هذا الملفوظ لا يقدم تفسيرا مقبولا للمعنى المراد توصيله.(٧٢)، وعند هذه النقطة فإننا أمام أربعة احتمالات:

١ - يمكن رفض المنهج التقليدي للتحليل الدلالي، ثم نحاول صياغة تفسير جديد لكل من المعاني الحرفية، والمعاني المراد توصيلها.

٢ - يمكن الإبقاء على المنهج التقليدي، لكن مع افتراض أن الاستعارة والأشكال الأخرى من اللغة التصويرية يمكن تفسيرها بواسطة مناهج أخرى.

٣ - يمكن افتراض أن المنهج التقليدي يمكن أن يعمل في كل الحالات، ثم يحتاج إلى بعض الإجراءات الإضافية إذا ما بدا المعنى الحرفي لغوا، أو منتهكا لبعض قواعد الحوار.

٤ - يمكن تعديل المنهج التقليدي لكي يعمل مع الاستعارة كما يعمل مع اللغة الحرفية.(٧٣)

إن روميلهارت يقبل الاحتمال الأول وهو رفض المنـــهج التقليـدي فـي التحليل الدلالي، ويرى أن سادوك يؤثر الاحتمال الثالث، بينما يرى هو أن كلا من الاحتمالين الثاني والثالث أكثر استخداما لأنهما - في رأيـــه - يحققـان بعـض النجاح، لكن هذا النجاح له عدد من التأثيرات السيئة في تطوير النظريـات التـي تحاول فهم اللغة، فهو أولا يقود إلى الاعتقاد بأن اللغة يمكن فهمها واقعيا بالبحث عن معاني المفردات في المعاجم، ووضعها معا لتشكيل المعنى الكامل، وثانيا يقود إلى افتراض أن المعنى الحرفي - في الجمل الحرفية ، والمعنى المـراد توصيلـه متماثلان، وثالثا يقود إلى رؤية أن المعنى المنقول في الخطاب يتكون من تسلسل بسيط من الكلام غير الحرفي في فئة خاصة. (٧٤)

لكن هل المعنى الحرفي ضروري للحصول على المعنى المراد توصيله؟ إنه يطرح هنا مشكلة الطلب غير المباشر INDIRECT REQUEST مناقشا إياها عنـد باحثين هما كلارك ولوسي اللذين اقترحا ثلاث خطوات لفهم جملة مثل (هل يجب أن تفعل س. التي تعني في رأيهما : لا تفعل س)، والخطوات هي:

١ - تحديد المعنى الحرفي للملفوظ باستخدام المعجم.

٢ - مقارنة المعنى الحرفي المحدد مع جملة من القواعد السياقية والحوارية المختلفة لتقرير ما إذا كان المعنى الحرفي هو نفسه المعنى المقصود INTENDED MEANING .

٣ - لو كان المعنى الحرفي المحدد غير ملائم ، فيمكن تطبيـق قواعـد إضافية لتحديد المعنى غير المباشر أو المعنى المراد توصيله.

ويرى روميلهارت أن المعنى الحرفي هـو الخطـوة الضروريـة الأولـى للوصول إلى المعنى المراد توصيله في مثل جمل الكلام غير المباشر ، كما ينـص أيضا على أهمية السـياق في الوصـول إلى المعنى المراد توصـيله، فجملة مثل (هل يجب أن تفتح الشباك) يمكن أن تكون طلبا غير مباشر لجملـــة (لا تفتـح الشباك)، كما يمكن أن تكون سؤالا يكون معناه (هل من الضـــروري أن تفتـح

الشباك ؟)، وهنا يكون للسياق دور معقد في فهم الطريقة التي يتحدد بها أحد هذين المعنيين.[٧٥]

أما النقطة المركزية في بحث روميلهارت فهي افتراضه أن اللغة الحرفية تعاني من المشكلات نفسها التي تعاني منها اللغة التصويرية، ففي كل من اللغتين يصعب تحديد ما يراد نقله من خلال المعاني المعجمية للملفوظ، ويعتمد التفسير في كل منهما على المعرفة الخلفية للمصطلحات الموجودة، كما أنه لا توجد قواعد تمتزج بواسطتها المعاني المعجمية لتوليد المعاني المراد توصيلها، إنه يعتقد أن الإجراءات التي تستخدم لفهم اللغة غير التصويرية ليست أقل اعتمادا على معرفة العالم من هذه التي تستخدم في فهم اللغة التصويرية. [٧٦] وأية نظرية تقدم لنا نتائج مثمرة في بحث اللغة الحرفية، يمكن استثمارها جيدا في بحث اللغة المجازية.

أما أسلوبه في تخطيط هذه النظرية، أو ما يسميه بآليات التعامل مع كل من اللغتين، فيظهر من خلال تحليله لبعض الأمثلة من اللغة الحرفية، ويخلص من هذا التحليل إلى عدد من الآليات التي يراها صالحة للتطبيق على اللغة المجازية، إن نقطة انطلاقه الأساسية تعتمد على ما يسميه بالمعرفة المتاحة لدى القارئ حول منطوق الجملة، فهو يرى أن هذه المعرفة تؤدي دورا مهما في تحديد أي التفسيرات أكثر قربا لمنطوق الجملة ، مثلا في الجملتين الحرفيتين التاليتين:

١ - لو جززت الحشائش، فسوف أعطيك ٥ دولارات.

٢ - لو كنت عضوا في مجلس الشيوخ، فإن عمرك سيكون أكثر من. ٣٥ عاما .

لا يعتمد التفسير في كل منهما على الدلالات المحتملة لأداة الشرط (لو)، ولا على معاني المفردات المعجمية، بل يعتمد على ما يسميه بمعرفتنا الحقيقية لعالم اتفاقات العمل، وعالم أعضاء مجلس الشيوخ، وهكذا. ففي الجملة الأولى نحن نعرف أننا لن نحصل على شيء إذا لم نقم بالعمل الذي اتفقنا عليه، وإذن فإن

المعنى المـراد توصيله هو نتاج معرفتنا الاجتماعية، وكذلك في الجملة الثانيـة، فإننا نعرف أن أعضاء مجلس الشيوخ قلة، وأن لديهم قدرا من الخبرة السياسية، وإذن فمعرفتنا أن الشخص فوق الخامسة والثلاثين لا تقدم دليلا كافيا علـى أنـه عضو في مجلس الشيوخ، وهذا يقوده إلى وضع تفسير عام لعملية الفـهم التـي يراها متطابقة مع عملية اختيار المخطط المفهومي CONCEPTUAL SCHEMATA، وتأكيده لتصبح الجملة قابلة للفهم.

إن مفهوم المخطط – كما يراه – هو عرض مجرد لمفهوم عام أو حالـة عامة ، هذا المخطط يكون مسئولا عن الحالة، مهما أُخذت هذه الحالة على أنـها مثال لتقسيم عام للمفاهيم التي يعرضها المخطط، وهكذا فإن الجملة الأولى تفترض أن المستمع يستحضر إلى عقله مخططا يتضمن تشكيل اتفاقات العمل، وفيها يعمل المرء مقابل المال، وتفهم الجملة على أنها حالة من حالات هذا المخطـط العـام، ويكون التفسير الشرطي عندئذ هو نتيجة طبيعية لهذا التفسير. هذا العمل يشبـه عمل علماء الحفريات الذين يشكلون من قطع صغـيرة متنـاثرة هيكـلا لحيـوان منقرض يشبه الهيكل الأصلي لهذا الحيوان.

إن روميلهارت – من خلال تحليله لنموذج إضافي يحتـوي علـى جملـة حرفية – يصل إلى نتيجة مؤداها أن افتراض تطابق المعنى المراد توصيله للمعنى الحرفي محل شك كبير، لذلك فإن مشكلة تحديد المعاني المراد توصيلها في الجمل الحرفية لا تقل صعوبة عما نجده في تحديد هذه المعاني في الجمل المجازية. (٧٧)

لا يكتفي روميلهارت بتحليل جمل حرفية مفردة ، بل يحاول تحليل فقرة في سياق قصة ، هذه الفقرة هي:

"لقد كان العمل بطيئا منذ أزمة البترول، لا أحد يريد شراء شيء قيم، فجأة انفتح الباب، ودخل رجل أنيق المظهر إلى صالة العرض، ابتسم جون بود، وأظهر تعبيرا لطيفا ، ثم تقدم ناحية الرجل".

لا تحتوي هذه الفقرة على أية إشارات مباشرة إلى أن جون بائع سيارات، لكن الناس تفهم ذلك، فكيف يصل هؤلاء الناس إلى مثل هذا التفسير؟ يرى روميلهارت أنهم لا يصلون إلى هذا التفسير دفعة واحدة، ففي أثناء القراءة ينشط المخطط، ويعدل بعض الأشياء، ويصفي أخرى، ويطرح أشياء ثالثة، حتى يصل إلى الفهم الكامل للفقرة، إن الناس تفترض في الجملة الأولى أن عمل جون مرتبط بالبترول، لذلك فهو يعاني، ويفترضون أنه إما بائع سيارات، أو صاحب محطة بنزين، وأما الجملة الثانية فإنها تضع الافتراض الثاني (صاحب محطة بنزين) في محل شك، فالبنزين ليس شيئا قيما، لكنه ما يزال احتمال قائم، أما الجملة الثالثة، فإنها تحسم الموقف لصالح الافتراض الأول.[٧٨]

هذه الفقرة لا تحتوي على أية جمل استعارية، ومع ذلك فإنها احتاجت إلى ما يسميه روميلهارت (المخطط) كي نصل إلى الفهم الصحيح لها، وهو يرى أن عملية الوصول إلى المعنى المراد توصيله هنا لا تختلف عن عملية الوصول إلى المعنى المراد توصيله في الجمل الاستعارية، لذلك لا يوجد سبب لافتراض أن الفهم الاستعاري يحتاج إلى بعد إضافي وراء الفهم العادي، إن المسألة - في رأيه - ليست مسألة منهج جديد في فهم الاستعارة، بل قدرة على فهمها.[٧٩]

إن جزءا كبيرا من اللغة التي نستعملها قائم على الاستعارة، وروميلهارت هنا سيحاول تطبيق أسلوبه السابق في فهم الجمل الحرفية على جملة استعارية، يبدأ بافتراض أن معظم الناس تعرف حدسيا ما هو حرفي، أو ما هو استعاري في الكلام، لكن تمحيص الحكم في هذه الحالة يبدو صعبا، مثل الحكم على الجملة التالية التي تحتوي على ما يسمى بالوظيفة المزدوجة للصفة:

- جون شخص بارد.

إننا نعرف بداهة أن هذه الجملة تعني أن جون رجل غير عاطفي، لكن هل هذه الجملة حرفية؟ إننا هنا أمام احتمالات ثلاثة:

الأول: لا. ليست جملة حرفية، فجون ليس حقيقة بارد، ومعنى البرود هنا هو معنى استعاري، وليس معنى حرفيا.

الثاني: نعم. فكلمة (بارد) لها معان عدة، وواحد من هذه المعاني يتضمن كونه غير عاطفي، وبهذا المعنى فإن الجملة تعد حرفية.

الثالث: نعم ولا. فاستخدام البرود ليعني عدم العاطفية هو أصلا استخدام استعاري، لكنه الآن أصبح عرفيا، إنه الآن مجرد مصطلح، والمصطلحات لا يمكن أن تكون حرفية، لكنها أيضا لا يمكن أن تكون مجازية، ولذلك فإنه من الأفضل القول إن جون في مصطلحنا هو – حرفيا – شخص بارد، لكن الكلمات التي استخدمت طبقا لمعانيها لا تجعلنا نقول إن جون شخص بارد، بل هو شخص غير عاطفي. إنه ينحاز إلى الاحتمال الثالث، بعد رفضه للاحتمال الأول والثاني.

قيمة هذا البحث أنه وضع الاستعارة موضعها الطبيعي داخل اللغة، فلم ينظر إليها على أنها حالة استثنائية داخل منظومة اللغة، حالة تحتاج إلى تعامل خاص، ومنهج مختلف في الرؤية، بل نظر إليها على أنها جزء من الكلام العادي، ينطبق عليها من إجراءات الفهم وعملياته ما ينطبق عل الكلام الحرفي من منظور أن جزءا كبيرا من اللغة التي نستخدمها يحتوي على استعارات، صحيح أنه لم يول اهتماما كبيرا بتحليل المزيد من الجمل الاستعارية مستخدما منهجه الذي حلل به الجمل الحرفية، لكنه كان يرى أن المشكلة في فهم الجمل الحرفية نفسها، وليس فقط في فهم الجمل الاستعارية، إن المستقر في التحليل الدلالي هو صعوبة فهم الجملة الاستعارية على أساس المناهج التي تستخدم في فهم الجملة الحرفية، وجاء هو ليثبت من خلال تحليل الجمل الحرفية أن الصعوبات التي تنشأ من أجل الوصول إلى المعنى المراد توصيله في هذه الجمل الحرفية لا تقل عن صعوبات الوصول إلى المعنى المراد توصيله في الجمل الاستعارية ، ولذلك كان التركيز على تحليل المزيد من الجمل الحرفية.

* * * * *

تناثرت إشارات فيما سبق عن الاستعارة الميتة، وعن الدور الذي تقوم به في اللغة، والاستعارة الميتة كانت في السابق استعارة حية، ثم تحولت وفق قانون التضاؤل التدريجي.[٨٠] إلى استعارة ميتة، وهي ظاهرة منتشرة في كـل اللغـات، وفي اللغة العربية فإن عبد القاهر قد تحدث عما أسماه الاستعارة غـير المفيـدة، ووضع يده بدقة على سبب استخدامها، وهو (التوسع في أوضاع اللغة، والتنوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس، وما شاكل ذلك من فروق).[٨١]، لكن الاسـتعارة غـير المفيدة لا تحدث عند عبد القاهر في وضع الأسامي الكثيرة للعضو الواحد، بل في استخدام أحد هذه الأسماء في غير موضعه، فهو يعلق على البيت التالي:

فبتنا جلوسا لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصفارا

يقول: فاستعمل الشفة في الفرس، وهي موضوعة للإنسان، فهذا ونحـوه لا يفيدك شيئا، لو لزمت الأصلي لم يحصل لك، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله "من شفتيه " وقوله "من جحفلتيه" لو قاله إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب.[٨٢]

ولا يبدو كلام عبد القاهر دقيقا حين يطبق مفهوم الاستعارة غير المفيـدة على هذا المثال، فعملية الاستبدال التي يقترحها عبد القاهر هنا تفتت البيت، وتغير من طـبيعة العـلاقات التي يحتوي عليها، إن المهر في البيت بمثابة ابـن مـن أبناء هذا الشـاعر، ابن يحاط بعناية ورعاية خاصة تمثلت في جلوس الشـاعر، وأفراد أسرته أو أصدقائه لدى هذا المهر ينزعون من جحفلتيه بقايا الطعـام مـن تبن وقش وغير ذلك، لقد أراد الشاعر أن يبين مدى الحميمية التي تربط المهر به، فاستخدم لفظة (شفتيه) ليدخله كفرد من الأفراد، بينما أراد عبد القاهر أن يبقـى في جنسه لا يتغير، وإذن فهذه الاستعارة لا نستطيع أن نعدها من الاستعارات غير المفيدة بحسب رأي عبد القاهر، وقد أدار الولي محمد نقاشا طويلا حول مفـهوم

عبد القاهر للاستعارة غير المفيدة، أظهر فيه مدى التناقض الذي وقع فيه عبد القاهر حول هذا المفهوم.(٨٣) لكن تبقى لعبد القاهر ميزة كبيرة في الالتفات إلى هذا النوع من الاستعارات، وإلى أهميتها في التغييرات الدلالية، أو التوسعات اللفظية التي تحدث في اللغة، لكن هل الاستعارة غير المفيدة عند عبد القاهر هي نفسها الاستعارة الميتة أو المجمدة في الدرس الغربي.

إن تحرير هذه المصطلحات قد تكون له أهمية في بيان الكيفية التي تنشأ بها الاستعارة، والطريقة التي تؤثر بها، ومدى هذا التأثير، فحين يستخدم عبد القاهر مصطلح الاستعارة غير المفيدة يكون السؤال حول هذا المصطلح هو: غير مفيدة لمن؟ وحسب السياق الذي يتحدث فيه عبد القاهر، والأمثلة التي يستخدمها، فإن هذا النوع من الاستعارات يبدو غير مفيد في مجال الشعر، ولكن هل يمكن استخدامه في مجالات اللغة الأخرى؟ هنا لا نعثر على أية إشارات عند عبد القاهر حول هذا الموضوع، فالشعر هو الإطار الذي يتحرك داخله عبد القاهر، وهو مصدر الاستشهاد الرئيس لأمثلته عن الاستعارة، مما يوحي بأن عبد القاهر كان يرى في الاستعارة ظاهرة شعرية، وليست أحد العناصر المهمة في اللغة، وعلى الغرم من إشارته إلى أهمية الاستعارة غير المفيدة في موضوع التوسع في أوضاع اللغة، فإنه لم يطور هذه الفكرة التي تستحق التطوير حتى داخل المنظور المنهجي الذي استخدمه في كتابيه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز).

وحين نقول استعارة ميتة، فإننا نسأل سؤالا أيضا حول طبيعة الشيء الذي يموت فيها، ومن سياق حديث سادوك فإنا نستنتج أن الذي يموت فيها هو قدرتها على إحداث تأثير من نوع خاص على المتلقي، وفي الشعر العربي القديم هناك قدر كبير من الاستعارات فقد هذه القدرة، وأصبح استخدامه داخل الشعر بكثرة محكا على عدم قدرة الشاعر على الإبداع، مثل استعارات "رأيت أسدا" و "سرت إلى البحر" و "والغمام الذي بين يدي الممدوح" وغير ذلك من هذه الاستعارات التي أصبحت ميتة بفعل الاستخدام المتواصل لها، ويرى سيرل أن الاستعارة تصبح

ميتة بسبب كثرة استعمالها، لكنه يعود ليضيف بعدا مهما في ذلك هـو أن كثرة استعمالها يعني أنها ترضي بعض الحاجات الدلالية.[٨٤]، إن الاستعارة الميتة تفقد فاعليتها بمرور الوقت، ولا يعود استخدامها يثير الحماس الذي صاحبها في حالة طزاجتها الأولى، وقد يعي بعض الشعراء هذا التضاؤل في قدرة بعض الاستعارات على التأثير، فيلجأ إلى إعادة تركيبها في صياغة جديدة، وتوليد علاقات دلالية جديدة في الصورة الاستعارية الميتة، مثلما فعل المتنبي في صورة الغمام في البيت التالي:

ليت الغمام الذي عندي صواعقه   يزيلهن إلى من عنده الديم[٨٥]

لقد أدرك المتنبي أن صورة الغمام التي أصبحت رمزا للكرم في الشعر العربي لا يستطاع استخدامها في علاقاتها القديمة دون أن تكون مبتذلة وسطحية، فعمد إلى استكشاف علاقات جديدة فيها، وصياغتها في هذه الصورة التي تجمع أطراف ثلاثة: الممدوح والشاعر والحساد، ثم يكون الغمام رابطا بينها، والغمام ليس مطرا فقط، أي ليس حياة، بل هو صواعق أيضا أي موت، وإذن فالغمام عند المتنبي أصبح رمزا يحتوي في داخله على عنصرين متضادين: الحياة والموت، فلمن يعطي الممدوح الحياة وهو بيده هذا الغمام، ولمن يعطي الموت، إنه يعطي المتنبي صواعق الغمام أي الموت، بينما يعطي حساد المتنبي الديم أي الحياة، أما المتنبي فإنه يتمنى من الممدوح في هذا البيت أن يرى الأمور على حقيقتها، فيمنح الصواعق للحساد، ويعيد إليه الديم، والعلاقات بين أطراف البيت، وبينها وبين القصيدة كلها فيها كثير مما يمكن قوله، لكن القصد هنا هو بيان الطريقة التي تعامل بها الشعراء المتأخرون مع بعض الاستعارات التي فقدت فاعليتها وأصبحت ميتة، ويمكن عد المتنبي من الشعراء المتأخرين في هذه الحالة، على اعتبار أن مثل هذه الصورة قد استخدمت في الشعر العربي قبل أكثر من أربعمائة عام من المتنبي، وهي فترة كفيلة لأن تفقد الصورة فاعليتها، وتصبح (أكليشيه) في الشعر.

لكن للاستعارة الميتة وجها آخر ليست له صلة مباشرة بالشعر، أو بقانون التضاؤل التدريجي الذي افترضه ستزيفن أتولمان للاستعارات الحية، وجه يتصل باللغة وبحاجة المتكلمين بها إلى التعبير عن علاقات قائمة لا يستطاع التعبير عنها بالإيجاز إلا من خلال استخدام الاستعارة، فحين يقال مثلا (رجل الكرسي) أو (عين الإبرة) فأنت هنا إزاء استعارة سدت حاجة المتكلم إلى الإيجاز ، وقد أدرك ماكس بلاك هذه القيمة في الاستعارة، فقال أن علماء الرياضيات تحدثوا عن (ساق الزاوية) لأنه لا يوجد تعبير مختصر لهذا الخط المحدد، ونقول (شفاه كرزية) لأنه لا يوجد شكل من الكلمات يكون ملائما للتعبير باختصار عما ذا تسبه الشفاه؟ أن الاستعارة تسد الثغرات في المفردات الحرفية (أو على الأقل تمدنا بالاختصارات الملائمة)، وفي ظل هذه الرؤية فإن الاستعارة تعد استعارة اضطرارية CATACHRESIS ، وأحددها على أنها استخدام اللفظ في بعض المعاني الجديدة كي تعالج ثغرة في المفردات، إن الاستعارة الميتة هي وضع معان جديدة لألفاظ قديمة، لكن سدت هذه الاستعارات الميتة الحاجات الأساسية، فإن المعنى الجديد الذي قدم، سيصبح بسرعة جزءا من المعاني الحرفية، إن كلمة (ORANGE برتقال ، أو برتقالي) أصبحت بهذه الاستعارة الميتة تنطبق على اللون، لكن الكلمة الآن أصبحت تنطبق على اللون انطباقها على الفاكهة.[٨٦] إن المنحنيات التقبيلية OSCULATING CURVES لا تكون قبلة أبدا، وقد عادت بسرعة لأن تكون أكثر نثرية واتصالا بالرياضيات، إن قدر الاستعارة الاضطرارية أن تختفي إذا أرادت أن تكون ناجحة.[٨٧]

إن إنشاء الاستعارات وفق مبدأ الإيجاز الذي قرره ماكس بلاك هنا كثير في الحياة اليومية، وفي كل اللغات، ويظهر هذا الأمر بوضوح أكثر في عملية سك المصطلحات في العلوم الطبيعية التي تؤدي فيها الاستعارة دورا مهما، وقديما فإن اللغويين قد التفتوا إلى هذا الأمر ، وأشاروا إليه إشارات متفرقة في بحثهم عن ظاهرة المشترك اللفظي، أو ما أسموه (الوجوه والنظائر)،

ورصدوا عددا كبيرا من الألفاظ في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكذلك في لغة العرب، يحدث فيها هذا الاشتراك اللفظي، لقد تم رصد ثلاثة عشر معنى لكلمة (عين) مثلا، كما تحدثوا أيضا عن أسبابه التي حصروها في أسباب خارجية، وهي اختلاف البيئة، وأسباب داخلية، وهي تغيير في النطق، أو تغيير في المعنى، وهو الذي يتصل بموضوعنا هنا، وتغيير المعنى يتم إما قصدا عندما يراد إدخال كلمة ما في لغة المتخصصين، فتصبح مصطلحا علميا، وهنا يتم استخدام الاستعارة، ومن أمثلة ذلك كلمة (التوجيه) من وجهت الرجل في الحاجة، والتوجيه في قوافي الشعر: الحرف الذي قبل الروي في قافية المقيد، وإما أن يتم هذا التغيير تلقائيا، وذلك إذا كانت هناك علاقة مشابهة بين المعنيين مثل كلمة (بشرة) التي تعني جلد الإنسان في الحقيقة، وتستعمل كذلك – لعلاقة المشابهة – بمعنى النبات.[٨٨]

إن تحليل المعاجم العربية يمكن أن يخرج بحصيلة هائلة من الاستعارات الميتة التي أدت دورا كبيرا في تطوير اللغة، وإحداث التغيرات الدلالية الكبيرة فيها، لكن البلاغيين العرب أهملوا مثل هذا الجانب في درس الاستعارة، وهو جانب كان كفيلا بأن يطور أفكارهم حولها بما يطرحه من أسئلة كثيرة حول ماهية الاستعارة في هذه الحالة، والدور الذي يمكن أن تؤديه في اللغة بشكل عام، وليس في الشعر بوجه خاص، وليست اللغة العربية بدعا في هذا المجال، فأغلب مفردات اللغات الحية متعددة المعنى، وجزء من هذا التعدد قائم على تأثيرات تصويرية في المفردة، لا يستطاع في بعض الأحيان بيان أسبابها، مما يشكل غموضا معجميا، وسادوك يضرب مثلا على ذلك بكلمة SWALLOW التي تعبر عن شيئين في الوقت نفسه: نوع من الطيور (السنونو)، وحركة في الزور (يبتلع).[٨٩]

* * * * *

آخر الموضوعات التي تطرح هنا هو علاقة الاستعارة بالسمات الدلالية للكلمة، فالكلمة الواحدة – أية كلمة – يمكن تحليلها إلى سمات تكوينية مميزة FEATURES ، ويتم استخدام هذه السمات في الاستعارة وفق منطق محدد، تستبعد فيه بعض السمات، وتبرز أخرى، تبعا للسياق الذي تكون فيه الاستعارة، وقد ابتكر جوناثان كوهين JONATHAN COHEN في بحثه عن دلالة الاستعارة منهجا أسماه منهج الحذف CANCELLATION ، هذا المنهج يعتمد على فكرة مؤداها أن إسقاط بعض السمات الدلالية في كلمة ما يمكن أن يؤدي إلى تغييرات مهمة في المعنى تطبعه بطابع استعاري[٩٠]، مثل أن تقول (المباراة تلفظ أنفاسها الأخيرة)، فالسمات الدلالية المميزة لعبارة (تلفظ أنفاسها) هي حركة دخول وخروج للهواء في صدر كائن حي، فإذا أسقطنا سمة الكائن الحي في هذه العبارة، أمكن ربطها بكلمة (مباراة)، وكذلك إذا أسقطنا في كلمة (يد) أنها (عضو في كائن حي)، وأبقينا سماتها الأخرى، جاز في هذه الحالة ربطها بشيء مجرد مثل (ريح الشمال) في استعارة لبيد (إذ أصبحت بيد الشمال زمامها)، وهكذا يمكن عن طريق منهج الحذف تتبع الأسلوب الذي تتوافق به المعاني المتنافرة للمفردات في الجملة الاستعارية.

لكن هناك مشكلة ذات شقين في هذا الموضوع: شق يتعلق بتحديد السمات الدلالية لكل كلمة، والشق الآخر يتعلق بالكيفية التي تترابط بها هذه السمات مع الكلمة، وتحديد السمات مشكلة تقع خارج حقل اللسانيات، وهي أقرب إلى أن تكون مشكلة معرفية، فحين تقول (بدت لنا شمس) وأنت تقصد امرأة، هنا نجد أن تحديد السمات الدلالية المرتبطة بالشمس يعتمد على جملة من العوامل المتشابكة، أغلبها غير لساني، بعضها يتصل بالبيئة سواء أكانت بيئة ثقافية أو مناخية، وبالشخص الذي ينتج هذه الإستعارة، وبالشخص الذي يتلقاها، فالسمات الدلالية للشمس في بيئة باردة تختلف عنها في بيئة حارة، كذلك فإن الموقف الشخصي لمنتج الاستعارة من الشمس له تأثيره الكبير على تحديد هذه السمات، والموقف

نفسه فيما يخص المتلقي، لكن هناك سمات مشتركة في كل موقف يمكن أن نطلق عليها اسم السمات الرئيسة، وهي التي تكون محل اتفاق، وهناك سمات خاصة تسمى في هذه الحالة سمات ثانوية، فالضياء والاستدارة والعلو هي سمات رئيسة، لكنها قد لا تكون سمات مميزة، أما شدة الحرارة والجمال، وكونها مصدرا للحياة على الأرض، فهذه وغيرها سمات ثانوية قد تضاف إليها في بيئات ثقافية أخرى سمات أخرى، أو تحذف منها سمات مستقرة في بيئة أخرى، وهكذا فإن محاولة معجمة السمات الدلالية للكلمات تواجهها صعوبات كثيرة، يتعذر في أغلب الأحيان حلها، إلا إذا اعتمدت على استقراء اجتماعي واسع لهذه السمات بين عينة شديدة التنوع.

وأما الكيفية التي تترابط بها السمات مع الكلمة، فمشكلة أخرى. إننا لا يمكن تصور أن كل السمات بنوعيها الرئيس والثانوي متساوية القرب من الكلمة نفسها، وتكون الكلمة في هذه الحالة مثل النواة المركزية التي تتجمع حولها هذه السمات. إن هناك سمات أكثر قربا من أخرى، لذلك فإن التصور الملائم هو أن توضع هذه السمات على مقياس متدرج بحسب مدى ارتباطها بالكلمة[٩١]، ويتحدد هذا المدى أيضا من خلال الاستقراء الاجتماعي لهذه السمات ، ووضع السمات المشتركة في نقطة أقرب من غيرها .. وهكذا.

مثل هذا العمل يقدم فهما أكثر دقة للعلاقات الدلالية في الجملة الاستعارية، فبواسطة تحديد السمات، واستخدام منهج الحذف بعد ذلك، وبمساعدة السياق اللغوي وغير اللغوي يمكن أن نحدد طبيعة هذه العلاقات الدلالية.

ولكن أي السمات يمكن حذفها في جملة (بدت لنا شمس)، وأي السمات نبقيها؟ هنا نجد أنفسنا أمام مشكلة أخرى، فتقسيم السمات إلى رئيسة وثانوية قد لا يكون كافيا لتحديد ما يمكن حذفه، أو إبقاؤه، ذلك أن هذا التقسيم يعتمد على عمومية الرؤية أو خصوصيتها لكلمة (شمس)، هذا لا يعني أن السمة الرئيسة هي أيضا سمة مميزة، إن الاستدارة مثلا قد تكون سمة رئيسة في الشمس ، لكنها

ليست سمة مميزة، فالقمر والكواكب والنجوم وأيضا الكرة فيها أيضا هذه السمة، وإذن فتقسيم السمات إلى سمات مميزة وسمات غير مميزة يساعد كثيرا عل تحديد ما يمكن حذفه، أو الإبقاء عليه في الجملة الاستعارية، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى مثل هذا الأمر حين قال إن وصف المرأة بالشمس لا يمكن أن يقصد به صفة الاستدارة لأن هذا مما تشترك فيه الشمس مع غيرها ، وحين فضل النقاد العرب أن تكون الاستعارة قريبة، فإنهم كانوا يقصدون إلى ما قصده عبد القاهر، أي أن تكون السمة الباقية في الكلمة هي سمة مميزة فيها، ومتداولة بين الناس، ولذلك حين وصف أبو تمام الخمر بأنها (جهمية الأوصاف)، فإنه قد أثار النقاد المحافظين الذين لم يستطيعوا تحديد السمة الدلالية المميزة في هذه الصورة، فقد أرادوا للشاعر أن يستعير للخمر ما استقر لها من سمات مميزة في الشعر العربي، أي أن يحافظ على استقرار العلاقات الدلالية بين أطراف الاستعارة كما استقرت في التقاليد الشعرية، لكن أبا تمام كان يطمح إلى تحطيم هذه العلاقات، والانتقال عبر مقياس السمات المميزة وغير المميزة ليختار منها ما يشاء، وهو ما فعله في كثير من الصور الشعرية.

* * * * *

الاستعارة والتداولية :

تقوم التداولية PRAGMATICS على مفهوم مقام الخطـــاب، هــذا المقــام يستدعي مجالا تيميا THEME، ووظيفة نصية، وانفعالا ، ومرجعـــا زمنيــا [٩٢]، والتداولية بذلك تناقش الجملة اللغوية المنجزة في حالة فعلها بين مجموعة مــــن الأفراد، وفي ضوء هذا المنظور – منظور الجملة في حالة الفعل – ظهرت نظرية الفعل الكلامي – SPEECH ACT THEORY – التي تمتد جذورها إلى الثلاثينيـــات من هذا القرن على يد الفيلسوف أوستين J. L. AUSTIN الذي ظــل يطــور فــي إجــراءاتها حتى ظهر له كتاب عام ١٩٦٢ بعنوان HOW TO DO THINGS WITH WORDS ، لكن جون سيرل JOHN SEARLE يعد أهم من بحث في هذه النظرية ، فهو الذي طرح أسئلتها الكبرى، وأوجد عددا من المبادئ والإجراءات التي تصلح لتفسير الجملة في حالة فعلها، وكانت الاستعارة إحدى المشكلات الأساسية التـــي واجهت سيرل، ذلك أن هناك قسما كبيرا من اللغة لا يتطابق فيه معنـــى المتكلـم SPEAKER MEANING مع معنى الجملة SENTENCE MEANING ، عدم التطــابق هــذا لا يشمل فقط اللغة المجازية، بل إن هناك أنماطا لغوية أخرى يحــدث فيــها عدم تطابق مثل الكلام غير المباشر INDIRECT SPEECH ، والمفارقة IRONY ، في هذه الأنماط ما تقصد إليه الجملة يختلف عما يقصد إليه مستخدم هذه الجملة، لذلك فإن سيرل – الذي شغلته هذه المشكلة – أراد أن يضع تخطيطا يميز فيه بين معنى منطوق المتكلم SPEAKER,S UTTERANCE MEANING ، أو معنى المتكلــم، ومعنى الجملة، وحدده في النقاط التالية:

- في المنطوق الحرفي، فإن المتكلم يعني تماما ما تعنيه الجملة، لذلك فإن معنى المتكلم، ومعنى الجملة متطابقان في هذه الحالة.

- في المنطوق الاستعاري البسيط، فإن المتكلم يقول إن (س هي ص)، لكنه يعني أن (س هي ع) استعاريا، ومعنى المنطوق في هذه الحالة يستخلص من معنى الجملة .

- في المنطوق الاستعاري غير المحدد فإن المتكلم يقول إن (س هي ص) لكنه يعني مجالا مفتوحا من المعاني (ع ، ع ١) ، ومعنى المنطوق في هذه الحالة أيضا يستخلص من معنى الجملة .

- في الاستعارة الميتة، فإن معنى الجملة الأصلي يهمل، ويكون المعنى المستخدم استعاريا هنا هو معنى المنطوق .

- في منطوق المفارقة ، فإن المتكلم يعني نقيض ما يعنيه معنى الجملة، وهكذا يستخلص معنى المنطوق بتقرير ما تعنيه الجملة ، وتقرير ما يعنيه عكسها .

- في الفعل الكلامي غير المباشر ، فإن المتكلم يعني شيئا إضافيا على ما تعنيه الجملة ، وهكذا فإن معنى المنطوق يشمل معنى الجملة إضافة إلى شيء زائد وراءها .[٩٣]

لكن سيرل يخصص فصلا كاملا من كتابه (التعبير والمعنى EXPRESSION -AND- MEANING) الذي نشره عام ١٩٧٩ للحديث عن مشكلة الاستعارة من زاوية تداولية ، وقد قسم هذا الفصل إلى خمسة موضوعات، بدأها بصياغة المشكلة التي جاءت إليه من الفهم المتفاوت للتعبيرات الاستعارية، فجملة مثل (سالي كتلة من الثلج) لا يعاني أحد من فهم المراد منها، لكن جملة مثل (سالي عدد فردي بين ١٧ و ٢٣) تطرح احتمالات كثيرة في فهمها ، بل إنه يصعب أحيانا تصور المعنى فيها، مثل هذه الأمثلة - في رأي سيرل - تطرح أسئلة رئيسة حول الاستعارة مثل: ما هي الاستعارة؟ وكيف تختلف عن الكلام الحرفي والمطوقات التصويرية الأخرى؟ ولماذا نعبر عما نريد استعاريا بدلا من أن

نعبر عن ذلك بشكل حرفي؟ كيف يعمل المنطوق الاستعاري؟ ولماذا تؤثر بعض الاستعارات ولا تؤثر أخرى؟ (٩٤)

إن مشكلة الاستعارة عنده هي جزء من مشكلة لغوية عامة هي تفسير الكيفية التي ينعزل فيها معنى المتكلم عن معنى الجملة أو الكلمة، أو بعبارة أخرى، هي مشكلة كيف تقول شيئا، وتعني شيئا آخر؟ إن الاستعارة ليست هي الشكل الوحيد للتعارض بين معنى المتكلم ومعنى الجملة، هناك أيضا المفارقة والأفعال الكلامية غير المباشرة التي لا يتطابق فيها معنى المتكلم مع معنى الجملة، مع أن ما يعنيه المتكلم يعتمد بشكل ما على ما تعنيه الجملة، وقد بلور سيرل مشكلة الاستعارة في فهم العلاقة بين معنى الكلمة أو الجملة من ناحية، ومعنى المتكلم أو المنطوق من ناحية أخرى،.وفي رأيه إن كثيرا من الكتاب في موضوع الاستعارة حاولوا تحديد العنصر الاستعاري للمنطوق في الجملة أو التعبيرات المنطوقة، وقد اعتقدوا أن هناك نوعين من معنى الجملة: معنى حرفي، ومعنى استعاري، لكن عندما نتحدث عن المعنى الاستعاري لكلمة أو تعبير أو جملة، فإننا نتحدث عما يمكن أن يتلفظ به المتكلم ليعني شيئا يبدأ بما تعنيه حقا الكلمة أو التعبير أو الجملة، لذلك فإننا نتحدث عن المقاصد المحتملة للمتكلم، حتى عندما نناقش جملة فارغة المعنى مثل جملة تشومسكي (الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام غاضبة)، فإننا يمكن أن نعطيها تأويلا استعاريا، وما أعنيه في هذا المثال هو كيف يمكن للمتكلم أن ينطق جملة، ويعني بها شيئا ما من الزاوية الاستعارية، بينما تكون هذه الجملة لغوا من الزاوية الحرفية.

حدد سيرل مصطلحان أساسان استخدمهما في معالجة هذا الجانب من مشكلة الاستعارة، وهما مصطلح (معنى منطوق المتكلم) و (معنى الجملة) ورأى أن المعنى الاستعاري هو معنى منطوق المتكلم.

إن هناك جملة من المبادئ تمكن المتكلم من الإيصال TO COMMUNICATE مستخدما المنطوق الاستعاري، أو المفارقة، أو الأفعال الكلامية

غير المباشرة، وهذه المبادئ تجعله يعني أكثر مما يقوله، أو يعني شيئا مختلفا عما يقوله، وتجعل المستمع - مستخدما معرفته بهذه المبادئ - يفهم ما يعنيه المتكلم، إن العلاقة بين معنى الجملة، ومعنى المنطوق الاستعاري ليست علاقة عشوائية، بل علاقة منظمة، والمهمة التي يضطلع بها سيرل هنا هي محاولة تحديد المبادئ التي تربط المعنى الحرفي للجملة بمعنى المنطوق الاستعاري، لأن المعرفة التي تمكن الناس من استخدام المنطوقات الاستعارية، وفهمها، أعمق من المعرفة التي تمكنهم من فهم المعاني الحرفية للكلمات والجمل، إن المبادئ التي يبحث عنها سيرل هنا لا تقع في دائرة النظرية الدلالية، أو على الأقل لا تقع كلها داخل هذه الدائرة، وهنا يقف سيرل في موقف نقيض لموقف روميلهارت الذي وضع عمليات التأويل الاستعاري والحرفي في سلة واحدة، فلم يفرق بينهما من خلال ما رآه من أن عملية تأويل المعاني الحرفية لا تقل صعوبة عما نواجهه في تأويل المعاني الاستعارية، أما سيرل فقد ميز بين هذين التأويلين كما رأينا، ولأن اهتمامه الرئيس هنا هو التأويل الاستعاري، فإنه اقترب أكثر من صياغة المشكلة في هذا السؤال التالي الذي طرحه: ما هي المبادئ التي تمكن المتكلم من صياغة المعنى الاستعاري، وتمكن المستمع من فهم هذا المعنى؟ وكيف نحدد هذه المبادئ في ضوء اختلاف المنطوق الاستعاري عن الأنواع الأخرى من المنطوقات التي لا يتطابق فيها معنى المتكلم مع المعنى الحرفي ؟ (٩٥)

إن نقطة البدء التي يراها ملائمة للإجابة عن هذا السؤال هي محاولة تشخيص المنطوقات الحرفية، فكل الكتاب الذين كتبوا في الاستعارة - في رأيه- يفترضون أننا نعرف كيف تعمل المنطوقات الحرفية، وهم يعتقدون لذلك أن مشكلة المنطوقات الحرفية لا تستحق المناقشة في تفسيرهم للاستعارة، لذلك فإن الثمن الذي يدفعونه هو أن تفسيرهم غالبا ما يصف المنطوق الاستعاري بأسلوب يفشل في تمييزه عن المنطوق الحرفي.(٩٦)

إنه لن يلخص مبادئ تأويل المنطوق الحرفي، بل سيبحث عن هذه السمات الضرورية للمقارنة بين المنطوق الحرفي والمنطوق الاستعاري من خلال الأمثلة التالية ذات المعنى الحرفي:

١ - سالي امرأة طويلة.

٢ - القطة فوق الحصيرة.

٣ - إن الحرارة تشتد هنا.

لاحظ أن المعنى الحرفي لهذه الجمل يحدد مجموعة من الشروط الحقائقية TRUTH CONDITIONS ، ولاحظ أكثر من ذلك أنه في كل حالة، فإن الجملة تحدد مجموعة محددة من الشروط الحقائقية نسبة إلى سياق معين، لأن كل جملة هنا تملك بعض العناصر النسبية INDEXICAL ELEMENTS [٩٧]، مثل الزمن المضارع، أو أداة الإشارة (هنا).

في هذه الأمثلة فإن العناصر السياقية التابعة CONTEXTUALLY DEPENDENT ELEMENTS لهذه الجمل تدرك في البنية الدلالية للجملة، فالمرء يستطيع أن يرى ويسمع هذه التعبيرات النسبية، لكن هذه الجمل - مثل كل الجمل - تحدد فقط مجموعة من الشروط الحقائقية في مواجهة خلفية الافتراضات التي تدرك في البنية الدلالية للجملة ، وهذا يظهر بوضوح في المثال الأول والثالث، لأنهما يحتويان على مصطلحات نسبية (طويل) (حار)، وهذه المصطلحات يطلق عليها النحو القديم (مصطلحات الصفات ATTRIBUTTIVE TERMS ، وهي تحدد فقط مجموعة معينة من الشروط الحقائقية في مواجهة خلفية من الافتراضات الواقعية عن نوع الأشياء التي يشير إليها المتكلم في بقية الجملة، وأكثر من ذلك فإن هذه الافتراضات لا تدرك بوضوح في البنية الدلالية للجملة، وهكذا فإن المرأة يمكن أن توصف حقيقة بأنها (طويلة) حتى لو كانت أقصر من الزرافة.

إن اعتماد مضمون المعنى الحرفي للجملة على افتراضات مسبقة حقيقية، وهي في الوقت نفسه ليست جزءا من المعنى الحرفي هو اعتماد واضح بالنسبة للجمل التي تحتوي على صفات، وهي ظاهرة عامة. لكن الجملة الثانية تحدد جملة من الشروط الحقائقية معطية افتراضات معينة عن القطط والحصائر والعلاقة القائمة بينهما. هذه الافتراضات ليست جزءا من المحتوى الدلالي للجملة، افترض مثلا أن القطة والحصيرة في حيز فضائي بعيد عن أي حقل للجاذبية لا يمكن معه استخدام ألفاظ (فوق) و (على)، فهل تظل القطة في هذه الحالة على الحصيرة؟ وبدون أية افتراضات إضافية، فإن الجملة لن تحدد مجموعة من الشروط الحقائقية في هذا السياق. أو افترض أن كل القطط أصبحت فجأة أخف من الهواء، أو أن القطة أرادت الطيران بقطعة من الحصيرة، فهل تظل القطة أيضا في هذه الحالة (على الحصيرة).

إننا نعرف بلا تردد الشروط الحقائقية لجملة مثل (الذبابة على السقف)، وليس لجملة مثل (القطة على السقف)، وهذا الاختلاف ليس مسألة في المعنى، بل مسألة في الكيفية التي تمكننا بها معلوماتنا الخلفية الواقعية من تطبيق معاني الكلمات، وعامة فإنه يمكن القول إنه في معظم الحالات، فإن الجملة تحدد فقط مجموعة من الشروط الحقائقية مرتبطة بمجموعة من الافتراضات التي لا تدرك في المضمون الدلالي للجملة، وهكذا فإنه حتى في المنطوقات الحرفية - حيث يتطابق فيها معنى المتكلم مع معنى الجملة - فإن على المتكلم أن ينسب إلى المنطوق الحرفي أكثر مما هو موجود في المضمون الدلالي للجملة، لأن المضمون الدلالي يحدد فقط مجموعة من الشروط الحقائقية المرتبطة بمجموعة من افتراضات يصنعها المتكلم، ولو تم الاتصال بنجاح، فإن المستمع يجب أن يكون مشاركا له في هذه الافتراضات.(٩٨)

يلخص سيرل بعد ذلك هذا النقاش الواسع حول الجملة الحرفية في ثلاث نقاط :

الأولى : في المنطوق الحرفي، فإن المتكلم يعني ما يقول، وهذا يدل على أن معنى الجملة الحرفي، ومعنى منطوق الكلمة هما الشيء نفسه .

الثانية: إن المعنى الحرفي للجملة - عموما - يحدد فقط مجموعة من الشروط الحقائقية المرتبطة بمجموعة من الافتراضات المسبقة التي لا تعد جزءا من المحتوى الدلالي للجملة.

الثالثة : فكرة المشابهة تلعب دورا أساسيا في أي تأويل للمحمول الحرفي LITERAL PREDICATION . (٩٩)

وعندما نتأمل الحالات التي يكون فيها معنى الجملة، ومعنى المنطوق غير متطابقين، فإننا نجد فرقا بينها وبين الحالات التي يتم فيها التطابق بين المعنيين، مثلا الجملة الثالثة يمكن أن تكون إخبارا لشخص ما عن اشتداد الحرارة في المكان (منطوق حرفي)، أو يمكن استخدامها كطلب لشخص ما أن يفتح الشباك (فعل كلامي غير مباشر)، أو تستخدم للتعبير عن شدة البرودة (منطوق تهكمي)، أو تستخدم للتعبير عن اشتداد درجة حرارة النقاش بين جماعة من الناس (منطوق استعاري).

ثم ينتقل سيرل بعد ذلك إلى درجة أخرى حين يقارن بين جملة استعارية، وبين الصياغة الحرفية لها، ففي المثال الثالث، إذا أخذ على أنه استعارة:

- إن الحرارة تشتد هنا. (استعارة)
- المناقشة المستمرة أصبحت تحتوي على قدر أكبر من الهجوم الحاد. (إعادة صياغة حرفية)
- سالي كتلة من الثلج. (استعارة)
- سالي غير عاطفية، وغير ودودة. (إعادة صياغة حرفية)
- ريتشارد غوريلا. (استعارة)
- ريتشارد مفترس، ومؤذ ، وأميل للعنف. (إعادة صياغة حرفية)

يقول بعد ذلك : لاحظ أنه في كل الحالات السابقة، فإننا نشعر أن إعادة الصياغة غير ملائمة، هناك شيء ناقص، ومهمتنا هي تفسير حالة عدم الرضا التي نشعر بها في إعادة الصياغة الحرفية للاستعارة، على الرغم من أن إعادة الصياغة تحمل تقريبا معنى المتكلم.

لكن هناك جملا استعارية نشعر أننا نفهمها تماما، وبرغم ذلك لا نكون قادرين على إعادة صياغتها حرفيا، مثل الجملة التالية:

- السفينة تشق عباب البحر.

في هذه الجملة لا نكون قادرين على إعادة بناء صياغة حرفية بسيطة لها، على الرغم من أن المنطوق الاستعاري لا يحمل في طياته أي غموض، وهذا يذكرنا بالنقاش الواسع الذي أداره عبد القاهر حول استعارة (يد الشمال) الذي رأى في هذه الاستعارة أن إعادة صياغتها، أو الوصول إلى أطراف التشبيه فيها لا يتم إلا من خلال سلسلة كبيرة من الجمل.

وهناك جمل استعارية أخرى نشعر أنها تحتمل أكثر من صياغة حرفية لها مثل الجملة التالية:

- جولييت هي الشمس.

يلاحظ سيرل أن الأمثلة التي استخدمها أمثلة مبتذلة، أو هي من الاستعارات الميتة، لكن الاستعارة الميتة لها وضع خاص عنده، فإنها لم تصبح ميتة إلا بسبب كثرة استعمالها، وكثرة استعمالها يعني أنها ترضي بعض الحاجات الدلالية.(١٠٠)

يحدد سيرل نطاق بحثه في الجملة الاستعارية ذات الإسناد الخبري، ويرى أن الشكل العام لهذا المنطوق الاستعاري يتحدد في أن المتكلم ينطق جملة هي أن (س هي ص) بينما يعني استعاريا أن (س هي ع)، ويرى أننا نحتاج في تحليل المسند الاستعاري METAPHORICAL PREDICATION إلى التمييز بين ثلاث مجموعات من العناصر:

المجمـوعة الأولى: هـناك تعـبير مسـند إليه SUBJECT EXPRESSION (س)، وهناك مسند يشير إليه.

المجمـوعة الثانية: هـناك تعـبير مسـند PRECICATE EXPRESSION (ص) قد تم لفظه، وهناك معنى حرفي لهذا التعبـير مـع شروطـه الحقائقيـة الملائمة.

المجموعة الثالثة: هناك معنى منطوق المتكلم (س هي ع)، وهناك أيضا شـروط حقائقية يحددها ذلك المعنى.

إن مشكلة الاستعارة في صورة بسيطة هي محاولة الحصول على تشخيص للعلاقة بين ثـلاث مجموعـات هـي (س) و (ص) و (ع ١) مـع تحديـد المعلومات الأخرى والمبادئ التي يستخدمها كل من المتكلمين والمستمعين لشرح الكيفية التي يكون بها ممكن أن تنطق (س هي ص)، وتعني أن (س هـي ع)، وكيف يكون ممكنا إيصال المعنى من المتكلم إلى السامع.

إن المشكلة الأساسية هي بحث مسألة المتكلم، وفي أنه يقول شيئا أكـثر من مجرد التأكيد على أن (س هي ع)، وأن التأثير الاستعاري يجب أن يشرح في ضـوء هذه الفرضـية: لماذا يخـتار المتكلم هـذا الطـريق الملتوي لتأكـيد أن (س هي ع)؟ وهكذا يبدأ سيرل من نقطة البداية التي يعتقـد فيـها أن نظريـة الاستعارة يجب أن تشرح: كيف يكون ممكنا نطق (س هي ص)، لكـن المعنـى المراد توصيله في هذه الجملة هو (س هي ع).

يرى سيرل أن المبدأ الأساسي الذي تعمل من خلاله كل الاستعارات هو أن منطوق التعبير مع معناه الحرفي، والشـروط الحقائقيـة الملائمـة يسـتطيع أن يستدعي إلى العقل CALL TO MIND معنى آخر، وشروطا حقائقية ملائمة أخرى ، والجزء الأصعب في نظرية الاستعارة هو شرح ماهية المبـادئ التـي يسـتطيع منطوق التعبير طبقا لها أن يستدعي إلى العقـل - اسـتعاريا - مجموعـة مـن الشـروط الحقائقية المختلفة عن تلك التي تحددت في معناه الحرفي.

يناقش سيرل في الموضوعين التاليين أهم نظريتين حول الاستعارة منذ أرسطو وحتى الآن، وهما النظرية المقارنة، والنظرية التفاعلية، وهو موضوع سنتحدث عنه بتفصيل أكبر في موضع تال من البحث، أما الموضوع الرابع عنده، ويعد الموضوع الرئيس، فهو المبادئ التي استند إليها في التأويل الاستعاري.

إنه يقرر في البداية أن السؤال عن: كيف تعمل الاستعارات، يشبه السؤال عن: كيف يذكرنا شيء بشيء آخر؟ لا توجد إجابة واحدة عن كلا السؤالين، وإن كان التشبيه يؤدي دورا أساسيا في الإجابة، إن الفرقين المهمين بينهما هما أن الاستعارات مقيدة وذات نسق: مقيدة بمعنى أنه ليس كل شيء يذكرنا بشيء آخر يمكن أن يكون أساسيا في الاستعارة، وذات نسق بمعنى أن الاستعارات يجد أن تكون ذات قابلية للإيصال من المتكلم إلى المستمع بفضل نظام مشترك من المبادئ.

ولنتناول المشكلة من وجهة نظر السامع، فلو استطعنا الوصول إلى المبادئ التي يستطيع السامع طبقا لها أن يفهم المنطوقات الاستعارية، فإننا نكون قد قطعنا شوطا تجاه فهم الكيفية التي يمكن بها المتكلمون إنتاج هذه المنطوقات حتى يكون التواصل ممكنا ، وذلك أن المتكلم والسامع يجب أن يشتركا في مجموعة عامة من المبادئ. افترض أن السامع يستمع إلى منطوق مثل (سالي كتلة من الثلج) أو (ريتشارد غوريلا)، فما هي الخطوات التي يجب عليه أن يتبعها كي يفهم المعنى الاستعاري لهذا المنطوق؟ إن من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال لن يحدد بدقة هذه الخطوات، وبدلا من ذلك فإنها تمدنا بإعادة بناء عقلية للقوالب الاستدلالية INFERENCE PATTERNS التي تستند إليها لفهم مثل هذه الاستعارات.

علاوة على ذلك، فإن الاستعارات ليست كلها بسيطة مثل الاستعارات التي نناقشها، لكن يفترض أن النماذج التي نستخدمها هنا تقدم مجالا للتطبيق على حالات أكثر شمولا.(١٠١)

يرى سيرل أن على المستمع أن يخطو ثلاث خطوات لفهم المنطوق الاستعاري:

الخطوة الأولى: يجب عليه أن يمتلك استراتيجيات لتحديد ما إذا كان عليه أن يبحث عن التفسير الاستعاري أم لا.

الخطوة الثانية: عندما يقرر البحث عن التفسير الاستعاري، يجب عليه أن يمتلك مجموعة من الاستراتيجيات، أو المبادئ لحساب القيم المحتملة لـ (ع).

الخطوة الثالثة : يجب عليه أن يمتلك مجموعة من الاستراتيجيات، أو المبادئ لحصر نطاق (ع)، حتى يمكن تقرير أي (ع) تشبه هذه التي استخدمها المتكلم لتأكيد (س).

يضرب سيرل مثالا بجملة (سام خنزير)، يقول إن المستمع يعرف أن هذه الجملة لا يمكن أن تكون حرفية، إنه سيجد خللا في الجملة، لو أراد فهمها حرفيا، وفي الحقيقة إن مثل هذا الخلل هو سمة لكل الاستعارات التي ناقشناها، والخلل الذي يفتح الطريق أمام السامع هو الكذب الواضح في الجملة، أو اللغو الدلالي، أو الانتهاك لقواعد الأفعال الكلامية، أو الانتهاك لمبادئ الحوار في حالة الاتصال، وهذا يوحي باستراتيجية تتضمن الخطوة الأولى فيها ما يلي:

- لو حدث خلل في المنطوق - إذا أخذ في معناه الحرفي - فابحث عن معنى المنطوق الذي يختلف عن معنى الجملة.

يطبق سيرل الخطوات الثلاث على جملة (سام خنزير)، فيقول: إن المستمع إذا أراد أن يبحث عن المعنى المقصود، فإن لديه عددا من المبادئ يستطيع وفقا لها أن يحسب القيم المحتملة لـ (ع)، وهو سيعرضها بعد قليل،

لكن واحدا منها هو: عندما تسمع أن (س هي ص) محاولا إيجاد القيم المحتملة لــ (ع)، فابحث عن الطرق التي يمكن بها أن تتشـــابه بها (س) مع (ص)، ولكي تعرف الشكل الذي يمكن أن يتشابه به (س) مـــع (ص)، فـــابحث عـــن السمة البارزة المعروفة المميزة لــ (ص).

وعلى ذلك فإنه في الجملة السابقة يمكن للمستمع أن يســتحضر معرفتـــه الواقـــعية كي يعرف مثل هذه السمات، مثل أن الخنزير ســـمين ، نـــهم ، قـــذر، مـــقزز .. الخ . هذا النطـــاق غير المحـــدد من السمات يمدنا بالقـــيم المحتملـــة لــ (ع) بالرغم من أنه توجد سمات أخرى مميزة للخنازير مثل أن لـــها شكـــلا مميزا، وفروة خاصة، ولكي يتم فهم المنطوق فإن المستمع يحتاج إلى الوصـــول إلى الخطـــوة الثالثة حيث يحدد النطاق المحتمل لــ (ع)، وهنا فـــإن المســـتمع يستطيع توظيف استراتيجيات مختلفة، لكن أكثر هذه الاستراتيجيات شيوعا هي:

- عد إلى لفظ (س)، وانظر أية سمة مـــن الســـمات المرشحـــة للقيـــم المحتملة لــ (ع) تكون مشابهة للسمات المحتملة لــ (س).

لكن شيئا مختلفا يحدث في جملة مثل (سيارة سام خنزيرة)، إن المستمع في هذه الحالة سوف يؤول هذه الاستعارة بشكل مختلف عن تأويلـــه للاســـتعارة السابقة[١٠٢]، فاستعارة (سيارة سام خنزيرة) يمكن أن تفهم على أنها تســـتهلك وقودا مثلما يستهلك الخنزير طعاما، أو أن شكل سيارة سام يشبه الخنزيرة، وهو تأويل مختلف عن تأويل الاستعارة الأخرى، على الرغم من أن الاستعارة واحـــدة في كلا الجملتين.

يحدد سيرل مبادئ التأويل الاستعاري بعد ذلك في ثمانية ، وهي :

المبدأ الأول :

الأشياء التي تكون فيها (ص هي ع) من حيث التحديد، وإذا أثرت الاستعارة، فإن (ع) ستكون واحدة من الخصائص البارزة

المحددة لـ (ص). على سبيل المثال:

- سام عملاق.   استعارة

سوف تؤخذ على أنها:

- سام كبير.   إعادة صياغة

لأن العمالقة هم كبار من حيث التحديد، وهو ما يميزهم.

المبدأ الثاني:

الأشياء التي تكون فيها (ص هي ع) من حيث الاحتمال، ومرة ثانية، فلو أثّرت الاستعارة فإن خاصية (ع)، سوف تكون خاصية مميزة أو معروفة لـ (ص)، مثلا:

- سام خنزير. استعارة

سوف تؤخذ على أنها:

- سام مقزز، شره، مهمل، وهكذا.

كل من هذين المبدأين يربطان المنطوق الاستعاري بتشبيهات حرفية مثل (سام مثل العملاق) و (سام مثل الخنزير) الخ، ولاحظ أن ارتباط هذا المبدأ بالمبدأ الذي يليه سوف يخلق فروقات في ألفاظ (ع)، تأمل الفرق مثلا بين الجمل التالية:

_ Sam is swine
_ Sam is a hog .
_ Sam is a Pig .(١٠٣)

المبدأ الثالث:

الأشياء التي تكون فيها (ص هي ع) من حيث القول أو الاعتقاد، حتى ولو عرف كل من المتكلم والسامع أن (ع) هي حالة كاذبة لـ (ص)

مثل:

- ريتشارد غوريلا. استعارة

هذه الأشياء يمكن أن تعني أن:

- ريتشارد حقير، مؤذ، ميال للعنف، وهكذا.

حتى وإن عرف كل من المتكلم والمستمع أن الغوريلا في الحقيقة كائنات حذرة وجبانة وحساسة، لكن أجيالا من التصورات الأسطورية حول الغوريلا

صاغت هذه التداعيات التي مكنت الاستعارة من العمل، حتى وإن كان المتكلم والسامع يعرفان أن هذه الاعتقادات كاذبة.

المبدأ الرابع:

الأشياء التي تكون فيها (ع ليست هي ص)، ولا تشبه أشياء (ص)، ولا يعتقد أنها تكون (ص)، ومع ذلك فإن هناك حقيقة حول حساسيتنا، سواء ما إذا كانت حساسية ثقافية أو طبيعية أننا نستطيع تخيل رابط يجعل نطق (ع) يستدعي إلى عقولنا سمات (ص)، وهكذا لو قلنا:

- سالي كتلة من الثلج. استعارة
- أنا في حالة مزاجية سوداء. استعارة
- ماري حلوة. استعارة
- كانت الساعات تزحف، ونحن في انتظار الطائرة. استعارة

تتجرجر

تتمطط

تسرع

تنطلق

هذه الجمل التي نطقنا بها لتعني استعاريا أن: سالي غير عاطفية / أنا غاضب ومحبط / ماري رقيقة ولطيفة وهكذا / جون في حالة غيظ / الساعات تبدو في درجات مختلفة من الدوران ونحن في انتظار الطائرة. هذه الجمل استعارات على الرغم من أنها غير قائمة على تشبيهات حرفية، ولاحظ أن التداعيات تميل إلى أن تكون مقاسة: درجات الحرارة مع مجالات العواطف، درجات السرعة مع دوران الوقت، وهكذا.

المبدأ الخامس:

موضوعات (ص) ليست مثل موضوعات (ع)، ولا يعتقد أنها تشبهها، غير أن شرط وجود (ص) يشبه شرط وجود (ع)، وإذن فيمكنني أن أقول لشخص نال ترقية:

- لقد أصبحت أرستقراطيا.

لا أعني شخصيا أنه قد أصبح مثل الأرستقراطي، بل إن حالته الجديدة قد أصبحت شبيهة بحال الأرستقراطي.

المبدأ السادس:

هناك حالات تكون فيها (ص) و (ع) متماثلتان، أو متشابهتان في المعنى ، لكن بحيث تكون واحدة منهما - وهي عادة (ص) محصورة في تطبيقها، ولا تنطبق حرفيا على (س)، وهكذا فإن كلمة (فاسد) لا تنطبق بشكل حرفي إلا على البيض، لكننا يمكن أن نقول استعاريا:

- هذا الرجل فاسد.(١٠٤)
- هذا المجلس النيابي فاسد.
- عقله فاسد.

المبدأ السابع:

هذا المبدأ ليس مبدأ مستقلا، بل أسلوب في تطبيق المبادئ السابقة كلها على حالات بسيطة لا تحتوي على الشكل (س هي ص)، لكنها استعارات علائقية، واستعارات ذات أشكال تركيبية أخرى مثل التي تحتوي على أفعال أو صفات إسناد. تأمل مثل هذه الاستعارات العلائقية:

- سام يلتهم الكتب.
- السفينة تشق عباب البحر.

- واشنطن أبو البلاد.

في كل حالة، فإن لدينا منطوقا حرفيا لعبارتين اسميتين، يحيط بمنطوق استعاري للفظ متعالق (يمكن أن يكون فعلا متعديا، كما في المثالين الأول والثاني، لكنه ليس بالضرورة كذلك في المثال الثالث). إن مهمة المستمع ليست الانتقال من (س هي ص) إلى (س هي ع)، بل الانتقال من (س ص في تعالقه بـ س١) إلى (س ع في تعالقه بـ س١)، والمهمة الأخيرة تختلف شكليا عن المهمة الأولى، لأن مبادئنا التشبيهية على سبيل المثال في الحالة الأولى سوف تمكننا من إيجاد السمة التي تمتلكها كل من (س) و (ص)، وأعني (ع)، لكن في الحالة الأخيرة، فإنه لن يستطيع إيجاد العلاقة بينهما ، وبدلا من ذلك فإنه سيجد العلاقة (ع) التي تختلف عن العلاقة (ص)، لكن تشبهها من بعض الجوانب.

المبدأ الثامن:

وفق تفسيري للاستعارة، فإنها تصبح قضية (علم المصطلح) عندما نفسر المجاز المرسل أو مجاز الكلية على أنه حالة خاصة من حالات الاستعارة، أو على أنه نوع مستقل من المجازات ، فعندما يقول المرء (س هي ص)، ويعني أن (س هي ع)، فإن (ص) و (ع) يمكن أن تتداعيا بواسطة علاقات مثل (علاقة الجزء بالكل) أو (علاقة الشكل بالمضمون)، أو حتى (علاقة الملابس بمن يرتديها)، في كل حالة - كما في الاستعارة - فإن المحتوى الدلالي لـ (ص) يوصل محتوى دلاليا لـ (ع) من خلال بعض مبادئ التداعي ، وحيث إن مبادئ الاستعارة شديدة الاختلاف، فإني أميل إلى معالجة المجاز المرسل ومجاز الكلية كحالة من حالات الاستعارة، ولذلك أضيف مبادئها لقائمة المبادئ الاستعارية، على سبيل المثال أستطيع أن أشير إلى العرش البريطاني على أنه (التاج)، وإلى الفرع التنفيذي لحكومة الولايات المتحدة على

أنه (البيت الأبيض) بواسطة استخدام مبادئ منسقة من التداعي، ومع ذلك فـإن ادعاء أن هذه الأنواع هي حالات خاصة من الاستعارة يبـدو لـي أنـه مسـألة اصـطلاح، ولو أيد أتباع مذهب الصفاء اللغوي فصـل مبـادئ الاسـتعارة عـن المبادئ التي تحكم المجاز المرسل ومجاز الكلية.(١٠٥)

في آخر الموضوعات التي يطرحها سيرل يتحدث عن العلاقة التي تربـط المفارقة والأفعال الكلامية غير المباشرة بالاستعارة، إن المفارقة تشبه الاسـتعارة في أن هناك خلافا بين معنى المنطوق ومعنى الجملة، وهو يضرب مثلا على ذلـك حين يكسر إنسان إناء صينيا نادرا للزهور، إن رد الفعل يمكن أن يكون كالتـالي: "ياله من شيء رائع قمت به"، هنا – كما في الاستعارة – يختلف معنى المتكلم عن معنى الجملة، فما هو المبدأ الذي يستخدمه المستمع ليستدل به على معنى المتكلم الحقيقي الذي يرى في هذا العمل أنه عمل غبي، يرى سيرل أن هذا المبدأ هو مبدأ النقيض opposite ، وهو أن معنى الجملة يقول نقيض ما يقوله معنى المتكلم.

وأما في حالة الفعل الكلامي غير المباشر، فإن الأمر يختلف قليلا، والمثال التالي يوضح هذا الاختلاف: افترض أنك تجلس حول مائدة عشاء مع آخرين، في أثناء ذلك وجه أحدهم إليك هذه الجملة: "هل تستطيع أن تمرر لي الملـح؟ عـادة فإنك ستأخذ هذا السؤال على أنه كالتالي: "من فضلك مرر لي الملح". إنـك هنـا أخذت السؤال عن مدى قدرتك، على أنه طلب لإنجاز فعل ما، فما هي المبادئ التي يمكن الاستدلال بواسطتها على ذلك؟ يرى سيرل أن الفعل الكلامي غير المـباشر يختلف هنا عن الاستعارة والمفارقة، فالذي يستخدمه يعني ما يقول، وببساطة فإن المبادئ التي تستخـدم هنا هي:

أولا: إن على المستمع أن تكون لديه وسائل لإدراك أن المنطوق يمكن أن يكون فعلا كلاميا غير مباشر، باعتبار مثلا أن السؤال عن قدرة المستمع يفتقد إلى أي هدف حواري، لذلك فإن المستمع سيبحث في هذه الحالة عن معنى آخر للجملة

ثانيا: بما أن المستمع يعرف قواعد الأفعال الكلامية، فإن عليه أن يعـــرف أن القدرة على تمرير الملح هي شرط تمهيدي لإنجاز الفعل.(١٠٦)

ويختم سيرل بحثه برسم توضيحي يبين فيه الاختلافات والتشابهات بيـــن المعاني الحرفية والمنطوقات الاستعارية، ومنطوقات المفارقة والأفعـــال الكلاميـــة غير المباشرة، كما يلي:

أن الأفكار الأساسية التي طرحها سيرل في بحثه أفكـــار جيـــدة، خاصـــة تفرقته بين معنى المنطوق، ومعنى الجملة، كذلك هـــذه المبـــادئ الثمانيـــة التـــي وضعها للتأويل الاستعاري التي يمكن أن نجد بذورا لـــها فـــي البلاغـــة العربيـــة القديمة، لكن بحث سيرل أثار اعتراضات في بعض أجزائه، جمعها جيري مورجان

JERRY L . MORGAN في بحثه "ملاحظات حول تداولية الاستعارة"، الذي رأى في بعض الجوانب التي إقترحها سيرل غموضا في معالجة الاستعارة، كما رأى أن مناقشته حول مصطلح (يستدعي إلى العقل CALL TO MIND) تشكل شبكة شديدة الاتساع، وتضم بعض الأشياء التي يعدها سيرل من الحالات الواضحة للاستعارة، بينما هي لا يمكن أن تجتمع في قارب واحد، وأكثر من ذلك فإن هناك صعوبات تظهر في تحليله ذي الخطوات الثلاث، كما أن بحثه تجنب التعامل مع السؤال المهم حول طبيعة الاستعارة.(١٠٧)

هذه هي أهم الاعتراضات الأساسية التي يطرحها جيري مورجان على بحث سيرل، والتي يفصلها بعد ذلك من خلال بحثه.

لقد بدأ بالتعليق على فكرة سيرل التي تقول إن الاستعارة هي مسألة معنى المنطوق، لذلك فهي مشكلة تداولية، وليست مشكلة دلالية، يقول إن هذا الرأي في حاجة إلى تمحيص، فهناك اقتراحات لتفسير الاستعارة يمكن النظر إليها على أنها معالجات دلالية، ومن زاوية الدلالة ، فإن سيرل رفض أيضا أن ينظر إلى الاستعارة على أنها تتضمن تغيرا في معنى بعض الأنواع التي تتغير من خلالها السمات الدلالية لبعض العناصر في الجملة، ويرى مورجان أن رفض سيرل لهذا المنهج غير مبرر، فهو بمثابة ضوء جانبي للغة أكثر انضباطا في مناقشة الاستعارة.

إن مصطلح (تغير المعنى CHANGE IN MEANING) له أكثر من معنى كوصف لعمليات التأويل الاستعاري، وهو سيحاول أن يختار من هذه المعاني ما يكون ملائما لنقده بحث سيرل، إنه سيبحث أولا عن معنى كلمة (معنى) في المصطلح السابق، وهو يرى لهذه الكلمة معنيين: الأول هو ما ينسب إلى الجملة من خلال القواعد المؤلفة للكلام في أية لغة، لكن الاستعارة كتغير في المعنى لا تبدو متماسكة من خلال هذا التأويل الحرفي، إن الادعاء أن المثال الاستعاري يتضمن تغيرا في المعنى بهذا التصور، يمكن أن يدل فقط على أن المعنى ليس هو

المستخدم في الكلام، بل هو المعنى الأصلي الذي يحل محله المعنى الجديد - المعنى الاستعاري - أو معنى جديد حرفي يضاف إليه.

والثاني بحسب مصطلح سيرل هو ما يحمله المتكلم في عقله لإيصاله بواسطة المنطوق، لكن هذا النوع من المعنى ليس موضوعا للتغير في عمليات الفهم، لكن هناك أسلوبا يمكن استخدامه كي يصبح للتغير في معنى الجملة دلالة، وأعني أن البدء بالمعنى الحرفي يجعل الإنسان قادرا على تكوين جملة معدلة تختلف في بعض جوانبها عن المعنى الحرفي الأصلي، لكن هذا ليس تغيرا في المعنى بالدلالة الحرفية، وحالة الاستعارة موازية لذلك، فليست هناك علامة على أن المعنى فيها يتغير، فالإنسان يبدأ بالمعنى الأول بطريق ما، وعندئذ فإن أمامنا في هذه النتيجة معنيين مختلفين، واحد منهما مشتق من الآخر، لكن لا يمكن القول هنا إن أي شيء قد حدث فيه تغير.(١٠٨)

بعد ذلك يخلص مورجان إلى أن عبارة (التغير في المعنى) لو فحصت جيدا، لا تدل على شيء في معناها الحرفي، لكن لو بحث الإنسان عن روح هذه العبارة بالتعامل معها استعاريا ، فإنها يمكن أن تقود إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها سيرل في بحثه، وهي أن الاستعارة هي مسألة (معنى المنطوق)، وأن الحقل الملائم لتفسيرها هو التداولية، وليس الدلالية، أكثر من ذلك فإن مورجان يعتقد أن التعامل مع الاستعارة على أنها نوع من المعنى تعامل خطأ في نفسه، لأنه سيقود - بشكل طبيعي - إلى التفكير في الاستعارة على أنها نوع من الملائمات في الجملة، لكنه لا يعتقد ذلك، إنه يعتقد أن الاستعارة هي مسألة: ماذا يريد الفرد أن يقول في الجملة؟ ومن أجل ذلك فإنه يقارن الاستعارة بالأفعال الكلامية غير المباشرة، وعلى الرغم من أنه لا يعتقد أن الاستعارة نوع من أنواع الفعل الكلامي غير المباشر، فهو يرى أن هناك مواضع تشابه مهمة بينهما.

يقول: لو قلت لشخص ما يجلس على قبعتي:

- أنت تجلس على قبعتي.

كأسلوب غير مباشر حتى يقوم من فوقها ، فلم تكن جملتي نفسها هي التي أخبرته "بأنني أود أن يقوم من فوق القبعة"، لكن ما فعلته بقولي هذه الجملة، إنني أعلمت محاوري أنه يجلس فوق قبعتي، ولو أخبرته بذلك بأسلوب غير لغوي، فإن التأثير سيكون واحدا، إن من الواضح له أنني أريده أن يعرف أنه يجلس فوق قبعتي، فلماذا قلت ذلك؟ ولأي غرض أردته أن يعرف ذلك؟ إن غرضي واضح، وهو السياق الحقيقي للجملة. إن محاوري سوف يستدل على أن سبب إعلامي له هو أن هذا المحاور لو أدرك وضعه، فإنه سيغيره، وأكثر من ذلك فإنه سيستدل على أن غرضي هو أن يستدل على ذلك من إخباري به، وإنه من الخطأ الكبير أن ننسب هذا الاستدلال إلى معنى الجملة، إنه استدلال يمكن أن يستخلصه المرء من الغرض الذي قلت من أجله هذه الجملة، هذا الغرض يمكن أن يتم بوسائل كثيرة منها الوسائل اللغوية، لذلك فإن المعالجة الملائمة لهذا النوع من المعنى غير المباشر لا يرتبط بنظرية معاني الجملة، بل بنظرية الأفعال الكلامية في هذا الجزء الذي يعالج الحالات الخاصة من أفعال الاتصال، وهذا هو الأمر نفسه مع الاستعارة، وأنا أعتقد أن بلاك قد وضع يده على نقطة مهمة عندما قال عن جملة ستيفن (القصيدة هي طائر الحجل A POEM IS A PHEASANT) إنه لا يعني أن القصيدة تشبه طائر الحجل، بل هي طائر الحجل نفسه، والمرء يمكن أن يصل إلى النتيجة نفسها عندما يأخذ هذه الجملة استعاريا.

– جون لا يشبه الشجرة فقط، بل هو الشجرة نفسها.

- John's not just like a tree , He is a Tree .

ولو كنت على حق، فإن هذه الجملة يمكن أن تعالج استعاريا، وعندئذ يظهر أنه لا تستطيع أية نظرية بسيطة في التشبيه أن تتعامل مع مثل هذه الحالة، إنها تثبت الاستعارة ، وتنفي التشبيه.(١٠٩)

* * * * *

نظريات الاستعارة:

إذا أردنا أن نصنف نظريات الاستعارة منذ أرسطو وحتى الآن، فإننا يمكن أن نضعها تحت تصورين أساسيين هما: المقارنة والتفاعل، في المقارنة تظل الحدود بين الأشياء كما هي، يحتفظ كل عنصر استعاري بماهيته، ويتم ربطه مع غيره في سياق يؤدي دورا محددا، أما في التفاعل فإن هذه الحدود تذوب وتتلاشى وتتحطم لتنتج شيئا جديدا بتعبير كولردج عن الخيال الثانوي، وقد خرجت من عباءة هذين التصورين عدة نظريات يمكن ردها كلها إلى واحدة منهما، مثل النظرية الاستبدالية التي ترتبط بنظرية المقارنة، أو النظرية السياقية التي تلعب دورا مؤثرا في تحديد ماهية التعبير: حرفيا أو استعاريا، وتأثيرها يغطي التصورين، سنناقش الآن هذين التصورين، المقارنة والتفاعل ، وسندرس مع نظرية المقارنة الفرض الاستبدالي في سياق واحد لصعوبة الفصل المنهجي بين إجراءات كل نظرية، والتصورات التي تقدمها.

النظريتان: المقارنة والاستبدالية.

تعود أصول هاتين النظريتين إلى أرسطو حين عرف الاستعارة بأنها نقل اسم شيء إلى شيء آخر (١١٠)، والنقل هنا هو استبدال SUBSTITUTION ، يتم إما على مستوى اللفظ، أو على مستوى التركيب ، يستطيع القارئ من خلال عملية عكسية يضع فيها اللفظ الحرفي مكان اللفظ الاستعاري أن يتمكن من الوصول إلى المعنى المراد، حين تقول مثلا الجملة التالية:

- رأيت أسدا يقاتل في الحرب.

فإن عملية الاستبدال تتم من خلال إحلال الكلمة المرادة مكان كلمة (أسد) لتحصل من خلال الاستبدال على المعنى الحرفي، أما الشرح الأكثر تفصيلا للنظرية الاستبدالية ، فقد قام به ماكس بلاك في أثناء نقده لها في بحثه عن الاستعارة، إنه يناقش المثال التالي:

-The Chairman plowed through the discussion

- المدير انفجر خلال المناقشة.

يقول: لنحاول أن نرى التفسير المحتمل الأكثر بساطة الذي يمكن أن يعطي لجملة (المدير انفجر خلال المناقشة)، إن التعليق المقبول لهؤلاء الذين يفترض أن لهم عقولا بسيطة لفهم الأصل، يمكن أن يكون بشكل ما على النحو التالي: إن المتكلم الذي يستخدم الجملة التي نحن بصددها يحاول أن يقول شيئا ما عن المدير وسلوكه في بعض الاجتماعات، وبدلا من القول بوضوح، وبشكل مباشر إن المدير تعامل بسرعة مع الاعتراضات، أو أوقف بحدة ما ليس له علاقة بالموضوع، فإن المتكلم اختار أن يستخدم كلمة (انفجر) التي تعني على نحو تام شيئا آخر، لكن المستمع الذكي يستطيع بسهولة أن يخمن ما يحمله المتكلم في عقله، هذا التفسير يعالج التعبير الاستعاري (لنطلق عليه M) على أنه بديل لبعض التعبيرات الحرفية الأخرى (لنقل إنها L). هذه التعبيرات هي التي تعبر عن المعنى نفسه الذي استخدم بديلا لها ، في ظل هذه الرؤية، فإن معنى (M) في بروزه الاستعاري سيكون فقط هو المعنى الحرفي لـ (L). إن الاستخدام الاستعاري للتعبير في ظل هذه الرؤية يتكون من استخدام هذا التعبير على نحو مختلف لمعناه المناسب أو العادي.

إنني سأطلق على أية رؤية تحمل التعبير الاستعاري، وتكون مستخدمة مكان بعض التعبيرات الحرفية المكافئة اسم النظرية الاستبدالية للاستعارة، وهي نظرية وجدت قبولا متناميا من عدد كبير من الكتاب، فوايتلي WHATALY يعرف الاستعارة على أنها كلمة تستبدل بأخرى بسبب التماثل أو التشابه بين معنييهما،

وفي معجم أكسفورد تعريف للاستعارة يقول: إنها مجاز يستخدم فيه اسم أو لفظ للإشارة إلى شيء ما يختلف عن الشيء الذي يشير إليه دائما، إلا أنه يشبهه من أحد الأوجه ، هذه التعريفات تعبر بوضوح عن الرؤية القديمة لتحديد الاستعارة على أنها تقول شيئا ، وتعني شيئا آخر.

وطبقا للنظرية الاستبدالية، فإن بؤرة الاستعارة تستخدم لتوصيل معنى يمكن أن يتم التعبير عنه حرفيا، إن المؤلف يستبدل (M) بـ (L)، ووظيفة القارئ أن يقلب الاستبدال باستخدام المعنى الاستعاري (M) كمفتاح للمعنى الحرفي المقصود (L)، وفهم الاستعارة هنا يشبه فك شفرة، أو حل لغز. (١١١)

هذه الرؤية الاستبدالية القائمة على فكرة النقل رؤية أصيلة في البلاغة العربية القديمة، فأقدم تعريف للاستعارة نجده عند الجاحظ ، قال فيه: إن الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه. (١١٢)، وقريب منه، لكنه يعبر عن فكرة النقل في صورة أكثر اتضاحا تعريف الرماني (ت : ٣٨٤) الذي قال فيه: إن الاستعارة هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة.(١١٣)

وفكرة الاستبدال القائمة على النقل تتضمن طرفين تحدث بينهما عملية مقارنة، إذن فالمقارنة هي لب نظرية الاستبدال، والمقارنة تستدعي التشبيه، وحسب التصور الغربي للاستعارة فإن كثيرا من الأمثلة يمكن أن نستخدم معه أداة التشبيه أو ما يسميه فرنر أبراهام LIKE - RELATION ، لتتحول الجملة من استعارة إلى تشبيه، ويرى أبراهام أن التداخل بين الاستبدال والمقارنة تام بحيث إن كل الأمثلة التي تصلح للاستبدال تصلح أيضا للمقارنة(١١٤)، إن المقارنة إحدى النظريات التي ما تزال تجد لها أنصارا حتى الآن، وريتشاردز في بحثه عن الاستعارة يضع احتمالات للمقارنة التي تتم بين العناصر الاستعارية، فقد تكون وضع الشيئين، وتركهما ليؤثرا سويا، وقد تكون تحليل هذين العنصرين لتوضيح

كم يشبه أحدهما الآخر، وكم يختلف، أو قد تكون عملية تحليل لإبراز التماثلات بين العناصر الموجودة في الجملة. (١١٥)

هذا التصور لنظرية المقارنة، والتداخل بينها وبين نظرية الاستبدال يستدعي الحديث عن علاقة الاستعارة بالتشبيه، فالتشبيه أيضا يتأسس على مبدأ واضح للمقارنة بين عنصرين أو أكثر، يتحدان في وجه للشبه أو أكثر، وبهذا المفهوم نسأل عن العلاقة التي تربط الاستعارة بالتشبيه؟ ، ونسأل عن الكيفية التي يعمل بها مبدأ المقارنة في كل؟

هذه العلاقة ربما تكون أكثر الموضوعات جذبا للحديث في موضوع الاستعارة ، لذلك فإننا أمام قدر ليس قليلا من البحوث التي تناولت هذا الموضوع، سواء في الدراسات الغربية، أو في الدراسات العربية القديمة والحديثة، وحسب الخطة التي سار عليها البحث منذ بدايته، فإننا سنختار بضع دراسات غربية حول هذا الموضوع، نحاول أن نتبين من خلالها اتجاهات التفكير الغربي في العلاقة بين التشبيه والاستعارة، ثم نقارن بينها وبين ما استقر لدينا في البلاغة العربية.

وأول دراسة نبدأ بها هي دراسة عالم النفس أندرو أورتوني ANDREW ORTONY عن "دور المشابهة في التشبيهات والاستعارات THE ROLE OF SIMILARITY IN SIMILES AND METAPHORS "، لقد تحدث في دراسته عن مصطلح (العلاقة RELATION) الذي رأى أنه يؤدي دورا مهما في موضوع العلاقة بين التشبيه والاستعارة، كما يؤدي مثل هذا الدور في اللغة عامة، لكن أورتوني ليس مقتنعا بأن التمييز بين الاستعارات التشبيهية SIMILARITY METAPHORS ، والاسعارات النبية PROPORTIONAL METAPHORS [116] سوف يكون مثمرا، وعندما تتضمن الاستعارات علاقات شائعة كما تظهر في الاستعارات النسبية، فإن بنيتها الأساسية تبدو مثل بنية الاستعارات التشبيهية، وعادة فإن الاستعارات التشبيهية تملك مصطلحين فقط هما (المبتدأ TOPIC) و (الخبر VEHICLE) مثل جملة (الرجل خروف THE MAN IS A SHEEP) التي تحصل

على سيرورتها من حقيقة أن هناك موضوعا مشتركا بين المبتدأ (الرجل) والخبر (الخروف)، أما في الاستعارات النسبية، فإن الفرق الوحيد بينها وبين الاستعارات التشبيهية هو أن المبتدأ والخبر فيها يشيران إلى علاقات بين الطرفين، وليس إلى موضوعات ، وهكذا فإن العلاقات ليست تقريبا أقل أهمية من الموضوعات ، فكل منهما له أهميته في تكوين أنواع من الأشياء تربط اللغة بالواقع، لكن لا يعد أي منهما أداة فعالة لشرح الظواهر اللسانية المحددة.

إن الفكرة الكامنة في الاستعارة النسبية هي فكرة القياس، وما تفعله الاستعارة هو التعبير عن القياس في صورة غير مباشرة بإهمال تراكيبها، وفي الوقت نفسه ، فإن الاستعارة تعبر - كما يحدث مع التشبيهات - عن المشابهة بين العلاقات التي لا تكون كذلك في الواقع، ومثال على الاستعارة النسبية التي تعبر عن القياس، وتوضح هذه النقطة:

- رأسي تفاحة بلا قلب.

- My Head is an Apple without any core .

هذه الاستعارة تؤول على أنها تأكيد على أن العلاقة بين (رأسي) و (موضوع ما) تشبه العلاقة بين التفاحة وقلبها غير الموجود، وبوضوح فإن جزءا مما تتضمنه عملية الفهم يكون في حل القياس التالي:

X بالنسبة إلى ؟ = Y بالنسبة إلى Z

وما يجعل هذا المثال استعارة ليس تضمنه علاقات شائعة، بل كون التفسير الحرفي له غير ممكن، أو هو تفسير كاذب، وهو كاذب لأن العلاقات التي تكون فيه تشبيها ليست في الحقيقة تشبيها على الإطلاق، إن غرضي هو إثبات أن الدور الذي تؤديه العلاقات في فهم الاستعارات وإنتاجها لا يتميز بأية ميزة خاصة، ومهما كانت العمليات التي تمكن الناس من فهم الاستعارات، فإن هذه الاستعارات يتم إنتاجها في تأويل منسجم لبعض الأشياء التي لو فسرت حرفيا، فإنها تصبح كاذبة، أو بلا أي معنى بالنظر إلى السياق الذي تكون فيه.

إن هناك ادعاءات أن الاستعارات هي مجرد مقارنات ضمنية، على النقيض من التشبيهات التي هي مقارنات صريحة، وأورتوني لا يثق في هذا الرأي، لأنه أولا لا يعتقد أن هذا حقيقي في كل الاستعارات، وثانيا إن حقيقة أن الاستعارات تستخدم في إنشاء مقارنات، لو كان ذلك صحيحا، لا يعني أن كل الاستعارات هي مقارنات، إن الاستعارة هي نمط من استعمال اللغة، بينما المقارنة هي نمط من العمليات السيكولوجية.

وعلى أي مستوى، فإنه من الصعب وضع كل الاستعارات داخل خريطة التشبيهات، لذلك فإنه من الضروري شرح الكيفية التي تعجز بها المقارنات الضمنية عن أن تكون مقارنات صريحة، لكن المشكلة الأكثر جدية مع هذا الادعاء أنه حتى لو كان هذا صحيحا، أو لو تم التأويل بطريقة يجعل هذا ممكنا، فإن كل هذا لن يكون واضحا إذا لم تفترض أن المقارنة الضمنية في الاستعارة، والمقارنة الصريحة في التشبيه هي مقارنة حرفية، أو هي استخدام حرفي للغة، ولو كان هذا الافتراض صحيحا ،فإن هذا الادعاء يعني اختزال الاستعارة إلى اللغة الحرفية، ولو كان غير صحيح - كما يعتقد هو - فإن المقارنات المتضمنة في كل من الاستعارة والتشبيه يظلان في حاجة إلى إيضاح:

- جون ثور. استعارة
- جون مثل ثور. تشبيه

لأنه لا يمكن تفسيرهما على أنهما استخدام حرفي للغة، بعبارة أخرى، فإن المشاكل التي تظهرها الاستعارات هي نفسها المشاكل التي تظهرها التشبيهات، وهكذا فإن اختزال الاستعارات إلى تشبيهات لن يضيف شيئا إلى حالتها.

وحقيقة أن الاستعارات لا تقوم على أساس من المقارنات، لا تعني أن إنشاء المقارنات ليس له أهمية في فهم الاستعارات، وإذا كانت عملية إنشاء المقارنات لها أهمية أساسية في فهم التشبيه، فإنه يمكن تفسيرها بأسلوب يجعلها ملائمة أيضا لفهم الاستعارات، وإنشاء المقارنات يتطلب أحكاما تشبيهية بين

الأطراف، ونحن نحتاج إلى التركيز على هذه الأحكام التشبيهية، ومعاملتها كمفهوم مركزي، وقد تحدث في هذا الموضوع عالم النفس تفيرسكي TVERSKY الذي قال إن درجة المشابهة بين اللفظين تتضح بواسطة الوظيفة العكسية حين تعرض في فضاء متعدد الأبعاد. [١١٧]، ولننظر إلى المسألة من زاوية أخرى، إن المسافة بين النقطتين (A) و (B) في الفضاء الإقليدي [١١٨] هي نفسها سواء قيست من A إلى B ، أو من B إلى A ، لكنها ليست كذلك في الفضاء متعدد الأبعاد، وإذا قسنا هذا الأمر على التشبيهات والاستعارات، فهي تعد أمثلة جيدة للتعارض، لأن الألفاظ إذا عكست فيها ، فإنها تصبح بلا معنى، أو أن معناها سوف يتغير كلية، وهذا يقود إلى أن تكون أقل في حقيقتها من المقارنات الحرفية، على سبيل المثال، فإن الجملة الحرفية التالية يصح فيها العكس:

– دوائر المعارف هي معاجم.

فنقول إن دوائر المعرف تشبه المعاجم بالدرجة نفسها التي تشبه فيها المعاجم دوائر المعارف، أما الجملة الاستعارية التالية، فلا يصح فيها العكس:

– هي الشمس.

فإن هذه الجملة تختلف في معناها عن جملة (الشمس هي)، وهو ما يسميه العرب التشبيه المقلوب، هنا نجد أن درجة التأكيد بين الجملتين الاستعاريتين تأخذ شكلا مختلفا في كل حالة.[١١٩]

ينتقل أورتوني بعد ذلك إلى الحديث عن الفرق بين المقارنة العادية والتشبيه، وهو يرى أن كلا منهما له نفس البنية السطحية للمقارنة الصريحة، كما في المثالين التاليين:

– دوائر المعارف مثل المعاجم. مقارنة عادية

– دوائر المعارف مثل مناجم الذهب. تشبيه

لكنه يعتقد أنه بينما يعد المثال الأول مقارنة حرفية – دوائر المعارف تشبه حقا المعاجم)، فإن المثال الثاني يعد مقارنة غير حرفية (دوائر المعارف لا

تشبه حقا مناجم الذهب)، إن لديه حكمين مبدئيين في تأكيد هذه الخلاصة، ولأنه يعتقد في أهمية ذلك، فإنه سيزيد الأمر إيضاحا.

إن الحكم الأول يلائم حدس الناس العاديين، على النقيض من هؤلاء المنظرين الذين يميلون إلى تجاهل هؤلاء الناس، فلو سأل شخص ما شخصا آخر عما إذا كانت دوائر المعارف تشبه حقا مناجم الذهب، فإنه لن يحصل على إجابة إيجابية مباشرة، والغالب أنه سيحصل على إجابة سلبية، خاصة إذا صيغ السؤال في حالة تعارض مع سؤال: هل دوائر المعارف تشبه حقا المعاجم؟ هذا يعني أن الناس لا تعتقد أن المثال الثاني حقيقي، إنهم يميلون إلى اعتباره كذبا، وعلى النقيض فإنهم يعتقدون أن المثال الأول حقيقي، لذلك فإنه من البدهي القول إن المثال الثاني كذب، وارتباطا بهذه الحقيقة، وهي حقيقة لسانية ، فإن التشبيهات – مثلما نجدها في المثال الثاني – تكون مرتبطة بسياج من الألفاظ مثل (نمط من) أو (نوع من)، وعندما يرفض الناس حقيقة التأكيد في التشبيه، فإنهم يقبلونه إذا كان مصاحبا لنوع من السياج اللفظي، لذلك فإني أعتقد أنه يوجد دليل على أن الناس عامة تقبل المقارنة العادية دون تردد، بينما يميلون إلى رفض الحقيقة في التشبيه، إذا حاولوا تطويره (أو فهمه) بالأسلوب نفسه الذي يفهمون به المقارنة العادية، وتبعا لذلك فإني أميل إلى اعتبار المقارنات العادية حقيقة حرفية، بينما التشبيهات تعتبر كاذبة من الناحية الحرفية.(١٢٠)

بعد ذلك يطرح أورتوني سؤالا مهما حول العمليات التي تتضمن الوصول إلى تفسير منسجم للمقارنة غير الحرفية، وطبقا لتفيرسكي، فإن المرء يفترض مماثلة، ثم يبحث عن تأويل للفضاء الذي يفسر طبيعة النظير تفسيرا أكثر اتساعا، لكن كيف يعرف المرء أنه يمكنه فعل ذلك، أكثر مما يمكن فعله مع المقارنات الحرفية، وأعني افتراض فضاء السمات وإيجاد النظير؟ يفترض تفيرسكي هنا عمليتين مترابطتين، لكنهما مختلفتين، وإذا لم يوجد نظير، فإن فضاء السمات يعاد تأويله كي يتم إنتاج نظير ملائم، كما أنه يمكن تطبيق عملية تأويل المقارنات

الحرفية على الاستعارات، أي البحث عن السمات البارزة في كل طرف من أطراف الجملة ومحاولة ربطهما معا، وإذا أردنا أن نطبق مثل هذه المفاهيم علـــى جملـــة "دوائر المعارف مثل مناجم الذهب" فإننا سنجد أن كل طرف من أطراف هذه الجملة له سمات بارزة تختلف طبقا للسياق الذي توجد فيه، وعملية المقارنة تتـــم مـــن خلال أخذ السمات البارزة في "مناجم الذهب" ومحاولـــة تطبيقـــها علـــى "دوائـــر المعارف" بادئة بأكثرها بروزا، يقول أورتوني: إن هناك بعض السمات البارزة في "مناجم الذهب هي أيضا سمات بارزة في "دوائر المعارف"، لكن هناك سمات بارزة في الطرف الثاني ليست كذلك في الطرف الأول، ولذلك لا يعد هذا المثـــل مقارنـــة حرفية، بل مقارنة قابلة للتأويل، وهذا يقود إلى التفسير التالي:

- عند مقارنة (A مثل B). لو كانت السمات البارزة فـــي (B) هـــي أيضا سمات بارزة في (A)، عندئذ نكون أمام مقارنة حرفيـــة، ويمكـــن الحكـــم عليها على أنها تشبيه حقيقي.

- لو كانت السمات البارزة في (B)، هي أقل بروزا في (A)، بينمـــا توجد في

(B) سمات بارزة لا يمكن تطبيقها أبدا على (A)، عندئذ نكـــون أمـــام تشبيه.

- لو لم توجد سمات بارزة في (B) يمكن تطبيقها علـــى (A) ، فـــإن المقارنة إما

لغوا، أو تكون غير قابلة للتفسير.(١٢١)

من زاوية أخرى ، فإن البروفيسور بروس فريزر BRUCE FRASER ناقش الاستعارة في علاقتها بالقياس ANALOGY ، ورأى أن تأويل الاستعارة يتطلب من المستمع إنشاء قياس، والاستعارة عنده تتحدد دائما على أنها نمط من القياس أو المقارنة الضمنية، بينما التشبيه يعد مقارنة صريحة، لكن إذا كان فهم الاســـتعارة يتطلب قياسا، فإن ذلك لا يعني أن الاستعارة هي نوع مـــن القيـــاس، إن القيـــاس

يؤدي دورا مهما في فهم الاستعارة، لكن هذا يشبه ما نقوله من أن القلب التناقضي POLARITY REVERSAL يؤدي دورا مهما في تفسير المفارقة، ولا يعني هذا أن المفارقة هي نوع من القلب التناقضي.[١٢٢]

والجزء الأكثر أهمية في بحث بروس فريزر هو التجربة العملية التي قام بها لبيان رد فعل مجموعة من الأفراد على الاستعارات والتشبيهات، لم يكن رد الفعل هذا هو الوحيد في هذه التجربة، لقد كانت هناك مجموعة من القضايا المبدئية، أراد فريزر أن يبحث عن حلول لها من خلال تجربته، هذه القضايا هي:

أولا: لو وجد المنطوق الاستعاري خارج سياق محدد :هل سيتم تأويله بدرجة متشابهة من خلال عدد من المتكلمين ؟ إن الفرض الذي يطرحه هنا هو أنه لن يحدث ذلك، لأن السياق يلعب دورا مهما في عملية التأويل.

ثانيا: من حيث الاختلافات بين المتكلمين، هل توجد اختلافات قابلة للفهم فيما يتعلق بشخصيات المتكلمين مثل: العمر، التعليم، الجنس، الخلفية الثقافية، وغير ذلك، وفرضيته هنا أنه توجد اختلافات خاصة فيما يتعلق بالتوجهات الثقافية.

ثالثا: من حيث الاتفاق، هل يمكن الاستدلال على السمات التي تنشأ عن هذا الاتفاق، وإلى أي مدى تكون مثل هذه السمات جزءا من الوصف اللساني للمنطوق؟

والفرض هنا أننا نحدد السمات، لكن هذا يرتبط بالجوانب الظلالية في المعنى CONNOTATIVE [١٢٣]، أكثر من ارتباطها بالمعاني المعجمية للكلمات.

هناك جانب آخر يمكن البحث عنه من خلال هذه التجربة، وهو تحديد المدى الذي يمكن فيه تأويل الاستعارات والتشبيهات التي تبدو ذات ترابط واضح

في بنيتها مثل (جون خنزير / جون مثل الخنزير)، وعلى الرغم من أن كثيرا من اللسانيين يرون قابلية تحويل الاستعارات إلى تشبيهات، ويمكن أيضا حدوث العكس ، فلا أحد تحقق من ذلك تجريبيا من خلال تأويل المتلقي، ومن أجل بحث هذه القضايا - على الأقل في مستواها الأولي - فإننا سنكون أربع مجموعات من ثماني وعشرين جملة، كل جملة قد تم الحكم عليها بالشذوذ الدلالي من خلال اثنين من متكلمي اللغة، أو أكثر من اثنين، والمجموعات التي تكون الجمل المراد اختبارها يتحدد لها الشكل التالي:

مجموعة A : هــو X .

HE,S AN X . :

مجموعة B : هـي X .

- SHE,S AN X . :

مجموعة C : هو مثل X .

- HE,S LIKE AN X . :

مجموعة D : هي مثل X .

- SHE,S LIKE AN X . :

وهكذا فإن مجموعة A و B تحتوي على تعبيرات استعارية تختلف فقط في جنس المبتدأ، ومجموعة C و D تحتوي على تشبيهات ، وتختلف أيضا فقط في جنس المبتدأ، وهو يأمل - باستخدام الضمير في المبتدأ - أن يتجنب بعض التصورات المحددة التي تصاحب بعض العبارات الاسمية الخاصة، وقد تم اختيار قيم (x) في الاختبار بطريقة عشوائية على قدر الإمكان من بين الموضوعات الملاحظة في الحياة اليومية والمثيرة للاهتمام، بيد أن هذه الموضوعات لا تتمتع بتأويل دلالي واحد ومقبول على نطاق واسع، ولم تبذل أية محاولات للتحكم في التصنيفات المفهومية لقيم (x).

لقد اختير المفحوصون كالتالي: ١٠ رجال ، و ٣٠ امرأة، وكلهم من طلبة الكليات في منطقة بوسطون، واللغة الإنجليزية لديهم هي اللغة الأم، أما أعمـــارهم فتتراوح بين ١٩ و ٣٨ سنة، ومتوسطهم هو ٢٦ سنة ، وقد اختيروا عشوائيـــا، فلم تتدخل الأعراق أو الخلفية الثقافية في ذلك.

أعطي كل مفحوص مجموعة من الأوراق تحتوي على ٣٠ مثال منفصـــل، وقـــد اشـــتملت هـــذه الأوراق عـــلى نوعـــين من الأمـــثلة العملية (x = كلب) (x = قوقع) اتبعها سبع من الأمثلة من كل مجموعة من المجموعات الأربع، وقد نظمت قائمة المواد في نظام عشوائي متعدد داخل كل مجموعة تحتوي علـــى ٢٨ مادة، وصنفت أربعة اختبارات مختلفة لهذه المجموعات، لذلك فإننـــا أمـــام ١١٢ مادة اختبار ، إذا ضربنا ٤ × ٢٨ .

النتائج:

إن الســـؤال الأساسي عما إذا كانت الاستعارة لها تأويل واحد في السياق – صفر قد أجيب عنه بالنفي، فيما عدا مادتين من مواد الاختبار (هو كلب، وهي قوقع، فالكلب بدا دائما كئيبا، بينما القوقـــع بـــدا بطيئـــا.)، وقـــد حصلنـــا علـــى الاستجابات التالية عند مزج الاستجابات للاستعارة بالاستجابات للتشبيه.

في حالة (x = نمل أبيض) :

هـــــو: حشرة مؤذية، مدمر، يأكل كثيرا، ضئيل، يتدخل في كل مناقشة، مخادع، يلتقط الأشياء وحده، طفيلي، قلق دائما عليك، تافه، ماكر، مراوغ.

هـــــي : مدمرة، تأكل كثيرا، ضئيلة، تنفق المال سريعا، صغيرة، مزعجة، طفيلية، قاسية، غير مطلوبة، لها عقل صغير، تخاف من نفسها،غبية.

وفي حالة (x = موز ناضج) :

هـــو : ناعم، شخص منضبط، طيع، عجوز ومزعج، عتيق الزي، ناضج، متوهج، لطيف، ودود، مستعد دائما، غير مؤذ، ناضج الآن لكنه سريع العفن، ذو شهوة شديدة.

هـــي: شهوانية، مجنونة، جاهزة للذهاب مع أي أحد، عندهـــا جاذبيـــة، مطيعة، ناعمة جدا، استفزازية، تعوزها الحيوية، حساســـة، ســـهلة الإيـــذاء، نحيفة، تعتني بنفسها، سمينة جدا، مومس، جاهزة لأن يخلع ثيابها أي أحد.

وفي حالة (x = أخطبوط):

هـــو: كله أذرع، متسلق، يفعل قليلا، أخرق، عدواني، لا يستطيع أن يبعد يده عن الفتيات ، مغتصب.

هـــي: تفعل كثيرا من الأشياء في وقت واحد، ضخمة دائما، مستبدة، مناورة، تستطيع أن تلمس كل شيء ، مغتصبة.

هناك أربعة أشياء يمكن استخلاصها من النماذج السابقة:

الأول: هناك غالبا تأويل واضح بلغة التقويم السلبي أو الإيجابي للتعبـــير. إن اســـتخدام النمل الأبيض كخبر ينتج دائما تأويلا ســـلبيا، وهـــذا يكـــون ناتجا - ربما - عن الاعتقادات المشتركة حول النمل الأبيض على أنــــه شـــيء غـــير مرغوب فيه، وفي حالة (x = يرقة فراشة)، فإنــــه مـــن المتوقـــع أن تنتـــج اســـتجابات سلبية، لكن الاستجابات كانت لإيجابية، مثل (هو يملك طاقة كامنة)، (هي ناعمة)، (هو بطئ وحذر)، وربما تســـتطيع بعـــض المقـــاييس العامـــة للازدراء تفسير ذلك.

الثاني: هناك غالبا فروق مميزة بين الخبر في جملة (هو)، والخبر فـــي جملة (هي) فلو كان الذكر هو الإخطبوط، فهو دائما عدواني، ذو أذرع كثـــيرة، شهواني، مشغول دائما، أما لو كانت الأنثى هي الإخطبوط، فإنها أقـــل عدوانيـــة، ومغتصبة، وأكثر تحررا، وطموحة، وغير ذلك.

الثالث: على الرغم من أن الأمثلة قد خلت من أية ظلال جنسية في المعنى، فإن كل جملة تقريبا قد فسرت مرتين أو أكثر تفسيرا جنسيا. إنه من السهل أن نرى ذلك مع (الموز الناضج) أو (الإخطبوط)، لكننا رأيناه مع (زبدة الفول السوداني) (هي مومس)، ومع (البوصلة) (هو لديه امـــرأة مومـــس)، ومع (يرقة الفراشة) (هي امرأة رخيصة).

هذه التأويلات الجنسية لم تقتصر على فرد أو فردين، ولم تكن غالبة على الذكور دون الإناث، بل كانت سمة عامة في كل التأويلات.

الرابع: على الرغم من أن الاختلافات في التأويلات كانت كبيرة، فإنه مـــن الممكن تمييزها إلى جوانب ثلاثة:

أ : جانب جسمي.

ب : جانب سلوكي.

ج : جانب وظيفي.

وكثير من الاستجابات يمكن وضعه في واحدة من هذه الثلاثة.

آخـر ما يمكن قوله حول هذه التجربة أن وضع الاستعارات والتشبيـــهات فيها كان بهدف تحديد ما إذا كان هناك أي اختلاف في التأويل بينهما، وقد كان من الصعب إيجاد خلاف حاد بينهما نتيجة النطاق الكبير الذي ظهر في الاســـتجابات، لكن يمكن القول إن الاستجابات إلى التشبيهات كانت أميل إلـــى تمييـــز الجـــانب السلوكي مقارنة بالاستجابات إلى الاستعارات، على سبيل المثال وجدنا اســتجابات عديدة لجملة (هي مثل يرقة الفراشة) مثل (هي تتطور)، بينما لم نجـــد أيـــة استجابة لجملة (هي يرقة فراشة. كذلك وجدنا استجابات عديدة لجملة (هو يشبه الضفدعة) مثل (هو يقفز كثيرا حول نفسه)، بينما لم نجد إلا اســـتجابة واحـــدة لجملة (هو ضفدعة).[١٢٤]

هذه بعض النقاط التي أثارها درس الاستعارة في علاقتها بالتشبيـــه عنـــد الغربيين، وهي نقاط تنحو إلى التمييز بينهما من ناحيـــة، أو رفـض لفكـرة

العلاقة المفترض بينهما من ناحية أخرى، وهي في أغلب الأحيان تنحو إلى عد التشبيه – لو وجد في الاستعارة – على أنه نوع من العمليات التي تجري في الذهن، ولا توجد عند مستوى الكلام (١٢٥)، وكما يقول صاحب كتاب "الاستعارة والمجاز المرسل" فإن التشبيه يتميز عن الاستعارة بفعل انعدام إدراك التعارض الدلالي.(١٢٦)

لقد دفع هذا الموقف من علاقة الاستعارة بالتشبيه عند الغربيين بعض النقاد العرب إلى رفض أية علاقة بينهما، وإلى شن هجوم حاد على البلاغيين العرب خاصة عبد القاهر، وإلى رفض الإطار النظري الذي انطلق منه عبد القاهر وغيره من البلاغيين العرب في درس الاستعارة (١٢٧)، لكن البلاغيين العرب قدموا درسا عميقا لعلاقة الاستعارة بالتشبيه في إطار النظرية التي كانت تحكمهم في درس الاستعارة، واستقرت لديهم هذه العلاقة إلى درجة عد الاستعارة ضرب من التشبيه، وهذا موجود في كثير من كتبهم (١٢٨)، كما نوقشت أيضا مسألة مدى القرب بين أطراف التركيب الواحد داخل كل من الاستعارة والتشبيه، واستقر لديهم أيضا أن هذا القرب من المستحسن أن يزداد اتساعا في حالة التشبيه ، بينما يفضل أن تظل الأطراف متقاربة في حالة الاستعارة (١٢٩)، وقد تحدث عبد القاهر عن تعبيرات يجوز فيها النقل من التشبيه إلى الاستعارة مثل "أبديت نورا" تريد علما، أو كما نقول "العلم كالنور"، وهناك تعبيرات لا يجوز فيها ذلك مثل "فإنك كالليل الذي هو مدركي"، والسبب أن الدلالة المقصودة لن تبين بالنقل إلى الاستعارة، وإنما تبين فقط من خلال التشبيه (١٣٠)، وناقش أيضا موضوع المبالغة بين النوعين البلاغيين فرأى أن الاستعارة تعلو درجة في المبالغة عن التشبيه (١٣١)، وقد أدرك عبد القاهر كذلك أن التشبيه المضمر في الاستعارة هو نوع من العمليات التي تجري في الذهن، ولا توجد عند مستوى الكلام (١٣٢)، وهي النتيجة نفسها التي وجدناها في كتاب "الاستعارة والمجاز المرسل"، ولاحظ عبد القاهر أيضا

الفروق التركيبية بين الاستعارة والتشبيه، فقال إن أغلب التشبيه جملة اسمية (مبتدأ + خبر)، أما الاستعارة فمتسعة [١٣٣]، كما تحدث عن الفرق بين الاستعارة والتشبيه من زاوية مدى شيوع السمات في كل، أو ما يسميها الدلالات، يقول "إذا أردت من شيء دلالة غير شائعة فيه، فلا يجوز أن تدل عليه بالاستعارة، بل بالتشبيه، مثل أن الدلالات العامة في الشمس ترتبط بالنور والحسن والاشتهار والظهور، فإذا أردت فيها دلالة جانبية مثل الاستدارة التي هي دلالة عامة في الكرة، لم يجز إلا استخدام التشبيه للتعبير عن ذلك" [١٣٤]، كذلك وقف عبد القاهر أمام التشبيه البليغ، وعده – تحت شروط معينة – من أنواع الاستعارة، ولم يكن عبد القاهر أول من أثار ذلك، فقد جاء أيضا في كتاب

(الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني إشارات إلى أن بعض الناس تعد مثل قول أبي نواس:

والحب ظهر أنت راكبه　　　فإذا صرفت عنانه انصرفا

من أنواع الاستعارة، لكنه يرفض ذلك مؤكدا أنه تشبيه "وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه [١٣٥] "ويلخص جابر عصفور موقف القدماء من مفهوم الاستعارة، فيرى أن القدماء أصبحوا ينظرون إليها" على أنها علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلك شأن التشبيه، لكنها تتمايز عنه بأنها تعتمد على الاستدلال، أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة .. .. وعلى هذا الأساس فنحن إزاء كل استعارة أمام نوعين من المعنى: المعنى الحقيقي ، والمعنى المجازي، أما الأول فهو سابق في الوجود لا في الرتبة، وأما الثاني فهو بمثابة وجه من أوجه الدلالة على الأول، وطريقة خاصة من طرائق تقديمه ، وإحداث خصوصية فيه" [١٣٦]، ولعل الرماني هو الوحيد من بين القدماء الذي رأى أن الاستعارة لا تقوم على التشبيه، وهو لا يقارنها

بالتشبيه، بل بالحقيقة التي توازيها، إذ يرى أن كل استعارة لبد لها من حقيقة هي أصل الدلالة على المعنى في اللغة.[١٣٧]

ولقد هوجم البلاغيون القدماء لاعتمادهم على فكرة المقارنة في درس الاستعارة، ولربطهم الاستعارة بالتشبيه [١٣٨]، وكان هذا الهجوم لصالح فكرة التفاعلية التي وضع أسسها ريتشاردز، وكان ماكس بلاك أهم شراحها، أما مصطفى ناصف، فكان أول من نقلها إلى البيئة العربية في كتابه "الصورة الأدبية" الذي وضعه عام ١٩٥٨، لكن فكرة المقارنة ما تزال لها أصداؤها سواء في الدراسات العربية، أو في الدراسات الغربية، على الرغم من أن عالما بحجم جون سيرل قد وجه لها طعنا حادا في أثناء حديثه عن تداولية الاستعارة، كما وجه طعنا مماثلا لفكرة التفاعلية، هناك مثلا البروفيسور صامويل ليفين SAMUEL R. LEVIN يكتب بحثا عن "المناهج المغيارية والاستعارات الأدبية STANDARD APPROACHES AND LITRARY METAPHORS " يرد به على هجوم سيرل على النظرية المقارنة، ويرى أن نقده للنظرية المقارنة نقد مصطنع [١٣٩]، لذلك حاول أن يوضح مواطن القوة في هذه النظرية، والكيفية التي تعمل بها في الاستعارات، يقول تحت عنوان "آليات الاتجاه والتفسير DIRECTIONALITY AND CONSTRUAL MECHANISMS " إن حدود المنهج المقارن تكون في معالجته للاستعارة من منظور أحادي، وطبقا لهذه الرؤية، فإن هناك شيئا يقارن بآخر من حيث علاقتهما معا بسمات أخرى مشتركة[١٤٠] ، ويرى ليفين أن هناك أداة مضمرة هي (LIKE) في التركيبات الاستعارية الاسمية مثل (بيل ذئب BILL IS A WOLF) أو (سالي كتلة من الثلج SALLY IS A BLOCK OF ICE) ، في هذه التركيبات هناك موضوعا هو (بيل) و (سالي) يتعدل ويتغير في مقارنته بمفاهيم الذئب وكتلة الثلج ، وعندما تكون أمثالنا على هذا الشكل ، فإنه ليس مكن الملائم – في تأويلنا الاستعاري – أن نعدل مفاهيمنا عن الذئب أو كتلة

الثلج بمقارنة هذه المفاهيم بأسماء الأعلام مثل بيل وسالي، لكن الاحتمال قائم في الاستعارة أن يتم تعديل أحد الألفاظ بمقارنته باللفظ الآخر، كما يمكـــن أن يحدد الإجراء العكسي ، هذه الحقيقة تصبح أكثر اتضاحا عندما نـــأخذ شكـــلا استعاريا مختلفا من الناحية النحوية ، وهو الشكل التالي :

١ - الغدير يبتسم ⟶ THE BROOK SMILED

٢ - الغدير يبتسم ⟵ THE BROOK SMILED

هنا يمكن تأويل المثل في اتجاهين : الأول أن يتعدل مفهوم (الغدير) في مقارنته بالفـــعل (يبتســـم)، أو يتعـــدل مفهوم الفعـــل (يبتسم) في مقارنته بـــ (الغدير)، وفي الحالة الأولى فإننا نحصل على تأويل يتميز فيه الغديـــر بســـمات إنســـانية (الابتسام)، وفي الحالة الثانية فإننا نحصل على تـــأويل يكـــون فيـــه الغـــدير متلألئ أو متألقا، وبمفهوم المقارنة فإننا نقول إن الغدير قد قورن بمفهوم الابتسام من حيث إن الابتسام نشاط يشترك فيه البشر ، وفي الحالة الثانية فإننـــا نقول إن نشاط الابتسام قد قورن بمفهوم الغدير من حيث إن الغدير هو شيء سائل ، وينتج عن الحالة الأولى تشخيص للغدير، وعن الحالة الثانية عـــدم تشخيـــص للابتسام.

من هذا التحليل السابق يظهر أن المقارنة تقدم نفسها على أنها الأســـاس المنطقي للاستعارة الاسمية، ومع هذا النمط فإنه من الإلزام تفسير الاستعارة فـــي اتجاه واحد فقط ، لكن هناك استعارات يمكن تفسيرها في كلا الاتجاهين، وفيـــها لا تبدو المقارنة هي العامل المهم في التفسير، إن هذا العامل المهم هم عامل النقـــل وامتزاج TRANSFER AND AMALGAMATION حيث تختار فئة فرعية من العناصر القابلة للتنافس ، أو التصديق في لفظ للامتزاج مع عناصر اللفظ الآخر.

إن امتزاج العناصر ربما يأخذ أشكالا مختلفة ، ونجد شكليـــن مـــن هـــذه الأشكال في تفسير المثال السابق ، ففي التفسير الأول تتحد سمة الإنســـانية فـــي

انتقالها من مفهوم الابتسام مع مفهومنا عن الغدير ، والنتيجة تكــون تشخيصـــا، وفي التفســير الثاني تأخذ السيولة – كسمة تنتسب إلى الغدير – مكانها كســمة مناسبة لمفهوم الابتسام ، ومهما كان المعنى الذي يكون للابتسام ، فإنه يتعدل كي يعني ما يدل على صفة السيولة في الشيء ، وبهذا الامتزاج – كأســاس –يصــل إلينا التلألؤ أو التألق ، إن الامتزاج هنا يأخذ شكل الإحلال DISPLACEMENT .

إن عمليات الإحلال هذه ليست خاصة ، إنها جزء من مخــزون العمليــات المتاحة للتفسير ، والتي يتم اختيارها للتطبيق على حالات معينة ، هذه الحـــالات ستحدد بشكلها ، وسياق المنطوق الذي قيلت فيه أية عمليـــات الامــتزاج سـيتم تطبيقها في التفسير، ونظريا فإن كل هذه العمليات يمكن تطبيقها على أية حالـــة، وهكذا نستخدم في التفسير الأول للمثال السابق الإحلال بدلا من الانصـــهار fusion كنوع من عمليات الامتزاج، إن التفسير سوف يثمر عن إحلال سمة الإنسانية محل السيولة للغدير ، والمحصلة لن تكون غديرا مشخصـــا ، بـل كينونــة إنســانية بخصائص معينة للغدير ، لنقل شخص بسمات البرودة والنظافة والنشاط ، وبنفس الأسلوب نستخدم في التفسير الثاني الانصهار بدلا من الإحلال كنوع من عمليــات الامتزاج ، وهذا لن يثمر عن غدير متلألئ ، بل غدير بسمات في منطقة وســطى بين التلألؤ والابتسام.(١٤١)

النظرية التفاعلية :

تعد هذه النظرية من أكثر النظريات التي لاقت قبولا في أوساط البلاغييــن العرب المحدثين ، وتعود أصولها إلى ريتشاردز الذي وضع لها الإطار النظري في بحثه عن الاستعارة الذي نشره عام ١٩٣٦ ضمن كتابه " فلسفة البلاغـــة "، فــي بداية هذا البحث طرح ريتشاردز ثلاث فرضيات حول الاستعارة ، أولـــها أن إدراك المشابهة قدرة لبعض الناس دون غيرهم ، والثانية أن الاســتعارة لا تتعلــم مــن الآخرين، والثالثة أن الاستعارة لها خصوصية داخل الاســتعمال اللغــوي ، فــهي

انحراف عن الوظائف المعتادة في اللغة [١٤٢]، وأثار ريتشاردز بعد ذلك مشكلة الكيفية التي عوملت بها الاستعارة ، فرأى أن الاستعارة عوملت على أنها زخرفة أو تجميل ، وعلى أنها قيمة إضافية في اللغة، وليست جزءا من شكلها التركيبي، وعلى الرغم من أن بعض الشعراء مثل شيلي قد أدركوا أن اللغة بطبيعتها استعارية ، فإن قول شيلي كان استثناء ، لم يؤثر في البلاغيين بعده.[١٤٣]

أما الجزء الأهم في بحثه فهو تصوره للاستعارة على أنها استحضار مفهومين مختلفين يرتبطان معا في تفاعل مشترك ، ويتدعمان من خلال كلمة مفردة ، أو تحول مفرد، ويكون معناهما هو محصلة تفاعلهما معا[١٤٤] ، هذا التصور هو ما أطلق عليه ريتشاردز تفاعلية الاستعارة ، وقد عززه بطرح مصطلحات جديدة في التركيب الاستعاري أهمها مصطلحا TENOR / VEHICLE[١٤٥]، ولقد كان مصطفى ناصف أول من طرح أفكار ريتشاردز عن التفاعلية في كتابه " الصورة الأدبية "[١٤٦] ، ثم ثناه بكتاب " نظرية المعنى في النقد الأدبي "[١٤٧] ، وكذلك في كتابه " اللغة بين البلاغة والأسلوبية[١٤٨] "، ولم يكتف مصطفى ناصف بعرض أفكار ريتشاردز ، بل عرض أيضا أفكار ماس بلاك الذي كان من أهم من توسعوا في عرض النظرية التفاعلية ، بحيث أنها أضيفت مثلما أضيفت إلى ريتشاردز ، وقد كان عرض ناصف لأفكار هذين الاثنين عميقا ومفصلا لكل جوانب النظرية بحيث يغنينا عن إعادة أفكارهما مرة أخرى ، لكننا نكتفي هنا بعرض أهم جوانب هذه النظرية كما بينها ماكس بلاك في بحثه عن الاستعارة :

١ - الجملة الاستعارية لها موضوعان مميزان : الموضوع الرئيس والموضوع التابع .

٢ - هذان الموضوعان من الأفضل رؤيتهما على أنهما نظامان من الأشياء، لا على أنهما أشياء فعلا .

٣ – تعمل الاستعارة بتضمين نظام ترابط المألوفات SYSTEM OF ASSOCIATED COMMONPLACES للموضوع الثانوي على الموضوع الرئيس.

٤ – هذه التضمينات تتكون عادة من الكلمات العامة حول الموضوع الثانوي، أحيانا تتكون من بعض التضمينات المنحرفة التي ينشئها الكاتب.

٥ – الاستعارة تختار سمات الموضوع الرئيس، وتؤكده، وتقمعه، وتنظمه بتضمين جمل تنطبق عادة على الموضوع الثانوي.

٦ – وهذا يستلزم تغيرات في معنى الكلمات المتعلقة بنفس العائلة ، أو النظام، وبعض هذه التغيرات ربما تكون تحولات استعارية.

٧ – عامة لا توجد أسباب بسيطة للتغيرات الضرورية في المعنى، ولا يوجد سبب شامل لأن تؤثر بعض الاستعارات، وتفشل أخرى في إحداث تأثير.[١٤٩]

الهوامش

(1) Max Black : In " Metapher and Thought , Edited by Andrew/ More about Metapher Ortony , Cambridge University Press 1981/ P : 19

(2) راجع مثلا الكتب التالية :

- علم البيان : د . بدوي طبانة
- علم البيان : د . محمد مصطفى هدارة
- علم البيان : د . عبد العزيز عتيق
- دروس في البلاغة العربية : الأزهر الزناد ، المركز الثقافي العربي للنشر والتوريع - الدار البيضاء - بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٢

(3) Hugh G . Petrie; In" Metaphor and Thought - Metaphor and Learning / ص ٤٣٩ - ٤٤١

(4) المرجع السابق ص : ٤٤٣

(5) Richard Boyd; In Metaphor and Thought - Metaphor and Theory Change / P : 357-362.

(6) John scarle : In Metaphor and Thought - Metaphor/ P :92.

(7) د . مصطفى ناصف. الصورة الأدبية : مكتبة مصر - الفجالة - ١٩٥٨ / ص : ١٤٤ - ١٤٧.

(8) هذا المجاز يشتمل على نوعين في التراث العربي : مجاز الجزء يراد به الكل ، ومجاز الكل يراد به الجزء .

(9) راجع مثلا ترجمة إبراهيم فقيه لمقال جون سيرل " مبادئ التأويل الاستعاري " في مجلة الفكر العربي/ العدد السادس والأربعون/ يونيو ١٩٨٧ / ص : ٣٥٢، وكذلك كتاب " فن الشعر "لأرسطو : ترجمة عبد الرحمن بدوي - دار الثقافة - بيروت ١٩٧٣ / ص ٥٨

(10) راجع مثلا ما كتبه مصطفى ناصف حول الاستعارة في كتاب الصورة الأدبية .

(11) Max Black : In "Models and Metaphor" by Max Black - Cornell University Press, Ithaca , new York , 1962/ Metaphor / P : 26.

(12) عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز : دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت / ص : ٥٧ وما بعده

(13) Christine Brooke - Rose : A Grammar of Metaphor - printed in Great Britain by Robert Cunningham and Sons Ltd - 1958 / P : 27.

(14) المرجع السابق : ص ٢٧

(15) المرجع السابق : ص ٢٨

(16) المرجع السابق : ص ٢٩

(17) المرجع السابق : ص ٢٩

(18) المرجع السابق : ص ٣٩

(19) المرجع السابق : ص ٤٦

(20) المرجع السابق : ص ٦٨

(21) المرجع السابق : ص ٦٩

(22) المرجع السابق : ص ٨٠

(23) المرجع السابق : ص ٩٣

(24) المرجع السابق : ص ١٠٥

(25) المرجع السابق : ص ١٠٩ - ١١٠

(26) المرجع السابق : ص ١١٨

(27) المرجع السابق : ص ١٤٦ - ١٤٧

(28) المرجع السابق : ص ١٤٦ - ١٤٨

(29) المرجع السابق : ص ٢٠٦

(30) المرجع السابق : ص ٢٠٩

(31) المرجع السابق : ص ٢١٧

(32) المرجع السابق : ص ٢٦٥

(33) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة : تحقيق : هـ . ريتر - دار المسيرة / الطبعة الثالثة ١٩٨٣ / ص ٤٢

(34) المرجع السابق : ص ٤٢ - ٤٣

(35) المرجع السابق : ص ٥٠

(36) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكيت-تحقيق : نعيم زرزور: مفتاح العلوم - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧ / ص : ٣٨٠ - ٣٨١

(37) المرجع السابق : ص ٣٨٢

(38) أحمد مصطفى الطرودي التونسي: جامع العبارات في تحقيق الاستعارات تحقيق : د . محمد رمضان الحربي - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان / ليبيا / الطبعة الأولى ١٩٨٦ / ص ٣٢١

(39) المرجع السابق : ص ٣٢٣

(40) أسرار البلاغة : ص ٣٠٤ - ٣٠٥

(41) جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام - ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد - مكتبة مصر بالفجالة / ص ٤١٦

(42) WERNER APRAHAM : A Linguistic approach to Metaphor: - LISSE / NETHERLANDS / THE PETER DE RIDDER PRESS - 1975 / P : 16-18.

(43) د . أحمد مختار عمر : علم الدلالة - مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٨٢ / ص ٢٤

(44) راجع مثلا ما كتبه ستيفان أولمان عن هذا الموضوع في كتابه " دور الكلمة في اللغة " ترجمة د . كمال بشر/ مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٧٥ - ص : ١٥٢ - ١٨٧ ، وهو من أوائل الكتب في هذا الموضوع .

(٤٥) لوريتو تود : مدخل إلى علم اللغة : مدخل إلى علم اللغة / ترجمة د . مصطفى التوني- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الألف كتاب الثاني ١٥١ - القاهرة - ١٩٩٤ - ص ٨٧

(٤٦) Jerrold M. Sadock : Figurative speech and Linguistics In " METAPHOR AND THOUGHt / p : 47

(٤٧) المرجع السابق : ص ٤٨.

(٤٨) المرجع السابق : ص ٤٧.

(٤٩) Max Black : More about Metaphor / P : 21.

(٥٠) الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح : الخطيب القزويني - القاهرة - ص ٣٠٦

(٥١) انظر في تفصيل ذلك " فلسفة المجاز " د . لطفي عبد البديع - النادي الأدبي الثقافي - جدة - الطبعة الثانية ١٩٨٦ / ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٥٢) راجع في ذلك ما كتبه عبد القاهر في موضوع المبالغة ، وكذلك ما كتبه مصطفى ناصف عن موضوع الزخرفة في كتاب " نظرية المعنى " / دار الأندلس للطباعة - بيروت /ص ٣٨ - ٧٠

(٥٣) نظرية المعنى : ص ٣٨ - ٧٠ .

(٥٤) Max Black : More about Metaphor / P : 24

(٥٥) Sadock - / P : 52.

(٥٦) المرجع السابق : ص ٥٤ - ٥٦

(٥٧) المرجع السابق : ص ٥٦ - ٥٧

(٥٨) الرجع السابق : ص ٤٨

(٥٩) WERNER APRAHAM / P : 6.

(٦٠) المرجع السابق : ص ٦

(٦١) المرجع السابق : ص ١٠ - ١٢

(٦٢) المرجع السابق : ص ٣٠

(٦٣) المرجع السابق : ص ٣٤

(٦٤) المرجع السابق : ص ٣٣

(٦٥) المرجع السابق : ص ٣٦

(٦٦) DAVID RUMELHART : Some Problems with the N otion of Literal Meaning IN METAPHOR AND THOUGHT / P : 78.

(٦٧) المرجع السابق : ص ٧٩

(٦٨) هده الاستعارة يصعب ترجمتها إلى العربية دون شرح إضافي لها

(٦٩) المرجع السابق : ص ٧٩

(٧٠) تستخدم العربية كلمة واحدة للتعبير عن المعنيين (افتح) .

(٧١) المرجع السابق : ص ٨٠

(٧٢) هذا المصطلح يعني : معنى الجملة الناجم عن معناها الحرفي مضافا إليه الموقف ومعانيه الضمنية / راجع " معجم علم اللغة التطبيقي " د . محمد علي الخولي – مكتبة لبنان – ص ٢٤

(٧٣) RUMELHART / P : 81.

(٧٤) المرجع السابق : ص ٨٢

(٧٥) المرجع السابق : ص ٨٣

(٧٦) المرجع السابق : ص ٨٣

(٧٧) المرجع السابق : ص ٨٤ – ٨٦

(٧٨) المرجع السابق : ص ٨٧

(٧٩) المرجع السابق : ٨٨

(٨٠) هذا القانون وضعه ستيفن أولمان في كتابه " دور الكلمة في اللغة " : انظر ص : ٩٦

(٨١) أسرار البلاغة : عبد القاهر / ص ٢٩

(٨٢) المرجع السابق : ص ٣٠

(٨٣) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي : الولي محمد – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – الطبعة الأولى – ص : ٥٦ – ٦٥

(٨٤) SEARLE / P : 98.

(٨٥) هذا البيت من قصيدة المتنبي الشهيرة :

وا حر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم.

(٨٦) هذا لا يحدث في اللغة العربية ، فقد أضيفت ياء إلى الكلمة لتدل على اللون ، بينما ظلت بدون هذه الياء لتدل على الفاكهة .

(٨٧) MAX BLACK - MODELS AND METAPHOR/ P : 32-33.

(٨٨) راجع في ذلك " علم الدلالة : أحمد مختار عمر – ص : ١٦٠ – ١٦١

(٨٩) SADOCK- / P : 50

(٩٠) JONATHAN COHEN : IN " METAPHOR AND THOUGHT " - SEMANTICS OF METAPHOR / P : 64 - 77.

(٩١) المرجع السابق : ص ٧٣

(٩٢) راجع في ذلك / البلاغة والأسلوبية : هنريش بليت / ترجمة وتقديم وتعليق : د . محمد العمري / منشورات دراسات سال ـــ الدار البيضاء – الطبعة الأولى ١٩٨٩ / ص ١٩.

(93) THE LINGUISTICS ENCYCLOPEDIA / EDITED BY KIRSTEN MALMLJAER LONDON - NEWYORK / 1991/ P : 422.

(94) SRALE / P : 92.

(95) المرجع السابق : ص ٩٤

(96) المرجع السابق : ص ٩٤

(97) هي تعبير أو كلمة يعتمد معناها على سياق استخدامها ، وعلى الموقف الذي تستعمل فيه ، مثل كلمة (هنا) أو (هذا) - معجم علم اللغة التطبيقي : ص ٥٤٠

(98) - SEARLE / P : 94 - 96.

(99) المرجع السابق : ص ٩٦

(100) المرجع السابق : ص ٩٨

(101) المرجع السابق : ص ١١٣ - ١١٤

(102) المستمع المصري سوف يؤول هذه الاستعارة بشكل مختلف تماما على اعتبار أن الخنزيرة وصف أطلقه المصريون على نوع معين من أنواع السيارات المرسيدس .

(103) الكلمات المستخدمة هنا كله تحمل معنى (خنزير) ، لكن بصفات مختلفة ، والفروق بينها مثل الفروق التي نجدها بين التعبيرات التالية (زيد أسد) (زيد شبل) (زيد لبوة) .

(104) في الأصل كما يلي This Soufflé is addled ، والكلمة تعني نوعا من الطعام يتم من خلال النفخ .

(105) - SEARLE / P : 115 - 119

(106) المرجع السابق : ص ١٢٠ - ١٢١

(107) JERRY L . MORGAN : OBSERVATIONS ON THE PRAGMATICS OF METAPHOR - " METAPHOR AND THOUGHT " P : 136.

(108) المرجع السابق : ص ١٣٨

(109) المرجع السابق : ص ١٣٩ - ١٤٠

(110) فن الشعر : أرسطو -ترجمة : د. شكري عياد / دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ / ص: ١١٦.

(111) - MAX BLACK / MODELS AND METAPHOR / P: 30 - 32

(112) الجاحظ : البيان والتبين- تحقيق : عبد السلام هارون - الطبعة الرابعة - بيروت - ج ١ / ص : ١٥٢

(113) د . محمد زغلول سلام: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن -تحقيق : محمد خلف الله أحمد - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر ص : ٨٥ .

(114) - WRNER APRAHAM / P : 15 - 16

(١١٥) RICHARDS : IN " THEORIE DER METAPHER / HRSG. VON ANSELM HAVERKAMP - DIE METAPHER : . - DARMSTADT :WISSENSCHAFTLICHE BUCHGESELLSCHAFT - 1983 / p : 44

(١١٦) الاستعارات التشبيهية هي ما يسمى في البلاغة العربية التشبيه البليغ (زيد أسد) ، والاستعارات النسبية مثل (يد الشمال).

(١١٧) هو فضاء أينشتين ذو الأبعاد الأربعة : الطول والعرض والارتفاع والزمن .

(١١٨) هو الفضاء ذي الأبعاد الثلاثة : الطول والعرض والارتفاع .

(١١٩) - ANDREW ORTONY : THE ROLE OF SIMILARITY IN SIMILES AND METAPHOR - IN METAPHORS AND THOUGHT / P : 187 -190.

(١٢٠) المرجع السابق : ص ١٩٠ – ١٩١

(١٢١) المرجع السابق : ص ١٩٣ – ١٩٤

(١٢٢) - BRUCE FRASER : THE INTERPRETATION OF NOVEL METAPHORS / IN " METAPHOR AND THOUGHT " / P : 177

(١٢٣) هو المعنى الإضافي الذي توحي به كلمة ما زيادة على معناها الأصلي ، وغالبا ما يختلف ظل المعنى من شخص إلى آخر ، لأنه يرتبط بالتجربة الشخصية . (معجم علم اللغة النظري) ص : ٥٤

(١٢٤) - BRUCE FRASER / P : 176 - 184

(١٢٥) ميشال لوعورن : راجع " الاستعارة والمجاز المرسل " : منشورات عويدات – بيروت – باريس / الطبعة الأولى ١٩٨٨ ص : ١١١

(١٢٦) المرجع السابق : ص ١١٢

(١٢٧) راجع في ذلك كتاب " فلسفة البلاغة " – د . رجاء عيد : منشأة المعارف – الإسكندرية .

(١٢٨) عبد القاهر : راجع " أسرار البلاغة " ص ١٥

(١٢٩) المرجع السابق : ص ١٠٩

(١٣٠) المرجع السابق : ص ٢١١ – ٢١٣

(١٣١) المرجع السابق : ص ٢١٨

(١٣٢) المرجع السابق : ص ٢٧٩

(١٣٣) المرجع السابق : ص ٢٨٣ – ٢٨٦

(١٣٤) المرجع السابق : ص ٢١٧

(١٣٥) القاضي عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه –تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم – على محمد البجاوي – دار إحياء الكتب العربية – طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي / ص ٤١

(١٣٦) د . جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب – المركز الثقافي العربي – بيروت – الطبعة الثالثة ١٩٩٢ / ص : ٢٠١

(١٣٧) د . شفيع السيد : التعبير البياني – دار الفكر العربي – القاهرة / الطبعة الثالثة ١٩٨٨ / ص : ١٢٥

(١٣٨) د . مصطفى ناصف : راجع " نظرية المعنى " / ص : ٨٤ وما بعدها .

(١٣٩) - SAMUEL R . LEVIN : STANDARD APPROACHES AND LITRARY METAPHORS IN(METAPHOR AND THOUGHT) /P : 125

(١٤٠) المرجع السابق : ص ١٢٨

(١٤١) المرجع السابق : ص ١٢٩ – ١٣٠

(١٤٢) - RICHARDS / P : 31 - 32

(١٤٣) المرجع السابق : ص ٣٢

(١٤٤) المرجع السابق : ص ٣٤ .

(١٤٥) ترجم المصطلح الأول على أنه المشبه أو المعنى المجازي ، وترجم المصطلح الثاني على أنه المشبه به أو المعنى الظاهر، راجع في ذلك : – الصورة الشعرية : الولي محمد / ص ٣٠١
– النظرية الاستبدالية للاستعارة : د . يوسف مسلم أبو العدوس / حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت – الحولية الحادية عشرة ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ مـ / ص ٧١

(١٤٦) الصورة الأدبية : ص ١٢٤ – ١٥٢

(١٤٧) نظرية المعنى : ص ٨٤ – ٩٩

(١٤٨) اللغة بين البلاغة والأسلوبية : النادي الأدبي الثقافي – جدة – العدد ٥٣ – ١٩٨٩ / ٤٨٧ – ٥٢٦

(١٤٩) - MAX BLAK / P : 44 - 45

الاستعارة

ماكس بلاك

العنوان الأصلى

Metaphor in "Models and Metaphor" by Max Black , Cornell University Press - Ilhoca, Newyork , 1962.

الاستعارة

إن التقليل من شأن الاستعارة يجذب الانتباه إلى فلسفتها، مثلمــا يحــاول المنطقى ذلك بمدح خطه الجميل، والتعود على الاستعارة يظل محظورا تحت مبـدأ أن المرء إما أن يتحدث استعاريا عن أى شئ، وإلا يجب عليه ألا يتحدث فى ذلــك على الإطلاق، إن طبيعة الهجوم ليست واضحة، لذلك فسوف أحاول ان أفعل شيئا ما لتبديد الغموض الذى يحيط بالموضوع. إن نقاد الأدب على الأقــل لــم يقبلــوا الوصية التى تنص على " لا تقترف إثم الاستعارة" ولم يقبلوا الافتراض الذى يرى أن الاستعارة تتعارض مع التفكير الجاد.

(١)

أن السؤال الذي أحاول الإجابة عنه يتعلق بــالنحو المنطقــي للاســتعارة، والكلمــات التي لها معاني مترابطة، وإنه من المرضى أن نحصــل علــى إجابــة مقنعة عن الأسئلة التالية "كيف ندرك موضوع الاستعارة؟" هل هناك أية مقــاييس لاكتشاف الاستعارة؟" هل يمكن ترجمة الاستعارة إلى تعبيرات غير مزخرفة؟" " هل الاستعارة ترى بدقة فى الحس البسيط على أنها زخرفــة؟" " مــا العلاقــة بيــن الاستعارة والتشبيه؟" " بأى حس تكون الاستعارة خلاقة؟" " ما خاصيــة اســتخدام الاستعارة؟" " أو بشكل أكثر اختصارا: ماذا نعنى بالاستعارة؟. إن الأسئلة الســابقة تعبر عن محاولات لأن تكون بعض استخدامات كلمة " الاستعارة" أكثر وضوحا. أو لو كان أحد يفضل الصيغة المادية لتحليل فكرة الاستعارة.

إن قائمة الأسئلة السابقة ليست دقيقة، كما أن بعضا من أسئلتها متداخل إلى حد ما لكنى آمــل أن تعطى مثالا كافيا لنمط البحث الذى تهدف إليه. وإنــه مــن المساعد أن نبدأ بقائمة مقبولة من (الحالات الواضحة) للاستعارة، وبناء مثل هذه القائمة ممكن لأن لكلمة استعارة بعض استخدامات واضحة مهما بدا فيها غموض

أو ترجح، ونفرض أن التعامل مع أمثلة معطاة أيسر من التعامل مع أى تحليل مجرد لفكرة الاستعارة.

١ – انفجر المدير خلال المناقشة.

٢ – حجاب ضبابى من الشهود.

٣ – نغمة جدالية.

٤ – أصوات مثل ورق النشاف (هنرى جيمس)

٥ – الفقراء هم زنوج أوربا (شامفوت chamfort)

٦ – إن الضوء هو ظل الإله (سير توماس بروان)

٧ – أوه، أيها الأطفال البيض الأعزاء، المهملون كالطيور، اللاعبون وسط اللغات المفلسة.(أودن)

إننى آمل أن تقبل هذه الأمثلة على أنها نماذج واضحة الاستعارة، مهما كانت الأحكام التى تطلق فى النهاية على معنى الاستعارة، هذه الأمثلة تقدم على أنها حالات واضحة الاستعارة، لكن مع الاستثناء المحتمل للمثال الأول فإنها ربما تكون غير مناسبة كنماذج. فلو أننا أردنا تعليم معنى الاستعارة للأطفال فسنحتاج إلى أمثلة أكثر بساطة مثل " السحب تصرخ" أو " الغصون تتشاجر" (هل من الممكن أن يكتشف المرء أمثلة التشخيص بالمصادفة؟) لكننى سأحاول أن أضمن بعض التنبيهات حول التعقديات المحتملة التى ربما تولدها الاستعارات النسبية المباشرة.

إن تأمل المثال الأول " المدير انفجر خلال المناقشة" يجعلنا نبدأ من نقطة واضحة هى التناقض بين كلمة" انفجر plowed" وبقية الكلمات التى تصاحبها. هذا يعنى أن كلمة " انفجر" تحمل هنا معنى استعاريا، بينما تحمل الكلمات الأخرى معانى حرفية. وعلى الرغم من أننا نشير إلى كل الجملة على أنها حالة واضحة للاستعارة فإن انتباهنا يتركز بشكل ضيق فى كلمة مفردة يكون حضورها سببا مباشرا لهذا التوصيف، ويمكن ايضا إطلاق ملاحظات شبيهة على الأمثلة الأربعة التالية فى القائمة. والكلمات الحاسمة فيها هى على التوالى "حجاب ضبابى

"smok screen" "جداليـــة argumentative" ورق نشـــاف blatting- paper" " الزنـــوج Nagroes" (لكن الوضع أكثر تعقيدا فى المثالين الأخيرين مـــن القائمـــة. فكلمـــة "ضوء" فى اقتباس سير براون يجب الافتراض أنها تحمل معنى رمزيا بعيدا عمـــا يمكن أن تجده فى كتب البصريات بالتأكيد، وهنا فإن المعنى الاستعارى "ظل الإله" يعرض المعنى بشكل أكثر غنى مما هو معتاد علـــى موضـــوع الجملـــة. ونفـــس التأثيرات يمكن أن تلاحظ على مقطع أودن، ونحـــن نتأمل على سبيل المثال معنى كلمة " أبيض "White " فى المقام الأول، وسوف أهمل مثل هذه التعقيدات فى هذا المقام).

وعامة فعندما نتحدث باستعارات بسيطة نسبية، فإننا نشير إلـــى جملـــة أو تعبير آخر تكون فيه بعض الكلمات مستخدمة بشكل استعارى بينما بقية الجملـــة تكون غير استعارية. أما محاولة إنشاء جمـــلة كاملة تكون كل كلماتها اســـتعارية فهذا يكون فى المثل والمجاز واللغز. ولن يغطى أى تحليل تمهيدى واف للاستعارة كل النماذج، حتى المبتذل منها من مثل " فى الليل فإن كل الأبقار تكون ســـوداء". ولن يغطى أيضا حالات الاستعارات الرمزية" مثلما نجد فى قلعة كافكا" التى تحتاج إلى معالجة منفصلة.

(٢)

"المدير انفجر خلال المناقشة"، عندما نطلق على هذه الجملة أنها" حالة من الاستعارة فإن كلمة واحدة على الأقل فى الجملة (هنـــا كلمـــة " انفجـــر") تكـــون استعارية، وكلمة واحدة على الأقل فى بقية الجملة تستخدم فى معناهـــا الحرفـــى، لنطلق على كلمة " انفجر" (بؤرة) الاستعارة، وبقية الجملة التى توجـــد فيـــهاهذه الكلمة (الإطار) .) هل نحن نستخدم الاستعارات الآن؟ هل هذا يحدث؟) فى هـــذا الصـــدد هناك فكرة فى حاجة إلى التوضيح، وهى الاستخدام الاســـتعارى لبـــؤرة الاستعارة، فبين أشياء كثيرة من المفيد فهم كيف أن وجود إطار ما يمكن أن يكون

استـــخداما استعاريا لكلمة متممة له، بينما وجود إطار مختلف للكلمة نفسها يفشل فى إنتاج استعارة.

فلو ترجمت الجملة التى تتحدث عن سلوك المدير حرفيا إلى لغة أجنبيـــة ممكنـــة فســوف نحتاج بالطبع إلى القول إن الجملة المترجمة هـــى نفــس الحالــة مــن الاستعارة. لذلك فعندما نطلق على جملة أنها مثال للاستعارة فإننا نقول شيئا مــا عن معناها، وليس عن شكلها الإملائى أو الصوتى أو صيغتها النحوية. (لاستخدام تمييز واضح للاستعارة، فإننا يجب أن نصنفها كمصطلح يتعلق بالدلالـــة وليــس بالتركيب، أو أى بحث فيزيائى للغة). افترض أن شخصا ما قال "أود أن أفجــر plowed ذاكرتى بانتظام"، فهل يمكن أن نقول إنه يستخدم نفس الاستعارة التـــى نناقشها الآن أم لا؟ إن إن إجابتنا تعتمد على درجة التشابـــه التـــى نكــون علــى استعداد لإثباتها للإطارين موضع المقارنة (لأن عندنا نفــس البـؤرة دائمـــا.) إن الاختلافات بين الإطارين سوف تنتج بعض الاختلافات فى التفـــاعل بيــن البــؤرة والإطار فى كل حالة. وإنه قرار تحكمى أن نرى الاختلافات فى أى الاثنين على أنه ضـــمان أكيد وكاف للادعاء بأن الجمـــلتين هما استعارتان. إن الاســـــتعارة هـــى كلـــمة فضفاضة فى الأحسن، ويجب أن نكون واعين لما ينسب إليـــها مـــن أدوار أقل استعمالا مما يكون موجودا لها فعلا فى الممارسات العملية.

حـــتى الآن فإننى سوف أتعامل مع الاستعارة على أنها محمول بـــــالمعنى الضيق للكلمة قابل للتطبيق على تعبيرات معينة بدون الالتفات إلى أية مناســـبات ترتبط بهذه التعبيرات أو الأفكار والأفعال والأحاسيس أو نوايا المتكلمين حول هذه المناسبات. وهذا بالتأكيد يكون صحيحا لبعض التعبيرات. إننا نـــدرك أن إطـــلاق كلمة "بالوعة" على رجل يعنى أننا نستخدم استعارة بدون معرفة من يستخدم هـــذا التعبير أو فى أى مناسبة وبأى غرض. إن قواعد لغتنا تحدد بعض التعبيرات على أنها استعارة، والمتكلم لا يستطيع تغيير هذا بأكثر مما يســـتطيع أن يفـــترض أن البقرة ستكون مشابهة للخروف. لكننا يجب أن ندرك أيضا أن القواعـــد المنشئـــة

للغـــة تترك مدى واسع للاختلافات الشخصية وروح المبادرة والخلـــق. ويوجـد عديد من السياقات دون تحديد (تشمل تقريبا كل ما هو مثير للاهتمـــام) يمكـــن أن نعيد فيها إنشاء معنى التعبيرات الاستعارية من نوايا المتكلم (والمفاتيح الأخـــرى) لأن القواعد الواسعة للاستخدام المعيارى عامة جدا فيما يخص إمدادنا بالمعلومات المطـــلوبة. فعندما أطلق تشرشل على موسولينى كلمة "هـــذه الأداة" فـــى تعبـير شـــهير فإن نغمة الصوت والإطار اللفظى والخلفية التاريخية ســـاعدت علـــى أن تبدو الاستعارة واضحة فى الاستعمال. (حتى هنا فإنه من الصعب رؤية كيف يمكن للتعبير "هذه الأداة" أن ينطبق على رجل عدا كونه أن يكون تحقيرا، هنا وكما فـــى أى مكان، فإن القواعد العامة للاستخدام تحد من حرية المتكلم فى التعبـــير عمـــا يرغب) وهذا مثال -على الرغم من أنه يبدو بسيطا- لكيفية أن إدراك الاســـتعارة وتفسيرها يمكن أن يتطلب انتباها للملابسات الخاصة المحيطة بالتعبير.

جدير بالملاحظة أنه لا توجد بشكل عام قواعد معيارية تحدد درجة الأهمية والتأكيد المرتبطة بالاستخدام الخاص لأى تعبير، فمدى جدية الشخص فـــى التعـــامل مـــع البؤرة الاستعارية يحدد لنا غرضه من استخدام الاستعارة نفسها (هل هو مســـتعد كمحتوى أن تكون له بعض المترادفات الحادة، أو أن هذه الكلمة ســـوف تخدمـــه فقط؟ ولكى تكون الكلمة أكثر وضوحا فإننا ننتبه لتداعياتها الأقل حضـــورا) إننـــا نستطيع الاسترشاد بالتشديد. وأساليب التعبير كمفاتيح فى أثنـــاء الحديـــث، لكـــن المعاونات تكون غائبة فى الخطابـــات المكتوبـــة أو المطبوعـــة حتـــى البدائيـــة منها.وفوق ذلك فإن هذا الثقل المراوغ إلى حد ما للاستعارة (اكتشافا أو استنتاجا) تكون له أهمية عملية كبيرة فى التفسير.

لنأخذ مثالا فلسفيا: إن التعبير "الشكل المنطقى" إذا عولج فى إطـــار محـــدد كمالك لمعنى استعارى فسوف يعتمد فى ذلك على التوسع الذى يمنحه المستخدم له الذى يكـــون واعيا ببعض التشابهات المفترضة بين المنطق والأشـــياء الأخـــرى (أوانى الزهور، السحب، النكت) يمكن أن نطلق عليها أيضا كلمة "شكل"، كما أن

ذلك يعتمد على ما إذا كان الكاتب يرغب فى أن يظل التشابه نشيطا فى ذهن قرائه، وإلى أى مدى يعـتمد فكره الخاص ويتغـذى بهذا التشابـه المفـترض. إننـا لا نتوقع أن تساعدنا قواعد اللغة فى مثل هذا البحث. (وفقـا لذلـك يوجـد معنـى للاستعارة يتعلق بما هو عملى أكثر من تعلقه بالدلالة، وهذا المعنى هـو الأكـثر استحقاقا للانتباه)

(٣)

لنحاول أن نرى التفسير المحتمل الأكثر بساطة الـذى يمكـن أن تمنحـه عبارة "المدير انفجر خلال المناقشة" لنرى كم سيبعد بنـا. إن التعليـق المقبـول (لهؤلاء المفترض أن لهم عقولا بسيطة لفهم الأصل) يمكن أن يكون بشكل ما على النحو التالى: إن المتكلم الذى يستخدم الجملة التى نحن بصددها سيكون مـأخوذا بقول شئ ما عن المدير وسلوكه فى بعض الاجتماعات. وبدلا من القول بوضـوح وبشكل مباشر إن المدير تعامل بسرعة مع الاعتراضات، أو أوقف بشكل صارم ما ليس له علاقة بالموضوع، أو شيئا ما عن الأسلوب، فإن المتكلم اختار أن يستخدم كلمة "انفجر" التى تعنى على نحو تام شيئا آخر. لكن المسـتمع الذكـى يسـتطيع بسهولة أن يخمن ما يحمله المتكلم فى عقله. هذا التفسير يعالج التعبير الاستعارى (لنطلق عليه M) على أنه بديل لبعض التعبيرات الحرفية الأخرى. (لنقل إنها L) هذه التعبيرات سوف تعبر عن المعنى نفسه الذى استخدم بديلا لها. فـى ظـل هذه الرؤية فإن معنى (M) فى بروزه الاستعارى سيكون فقط هو المعنى الحرفـى لـ (L). إن الاستخدام الاستعارى للتعبير فى ظل هذه الرؤية يتكون من اسـتخدام هذا التعبير على نحو مختلف لمعناه المناسب أو العادى. فى بعض السياقات التـى تسمح للمعنى غير العادى أو غير المناسب أو العادى. لأن يكتشف ويحول بشكـل مناسب (إن هذه الأسباب التى تقدم لمثل هذا الإنجاز الملحوظ سوف تناقش فيمـا بعد)

إننى سأطلق على أية رؤية تحمل هذا التعبير الاستعارى وتكون مستخدمة مكان بعض التعبيرات الحرفية المكافئة اسم "النظرية الاستبدالية للاستعارة (إننى أود لهذه العلامة المميزة أن تشمل أيضا أى تحليل يرى الجملة الكاملة التى تموضع الاستعارة كبديل لبعض المجموعات من الجمل (الحرفية) وحتى الوقت الحالى فإن شكلا واحدا أو آخر من النظرية الاستبدالية تقبله غالبية الكتاب (عادة هم نقاد الأدب أو مؤلفو كتب البلاغة) الذين ليس لديهم أى شئ للحديث عن الاستعارة، ولنأخذ أمثلة قليلة : فإن ويتلى Whately يعرف الاستعارة على أنها كلمة تستبدل بأخرى بسبب التماثل أو التشابه بين معنييهما، وفى معجم أكسفورد توجد اختلافات كثيرة عما سبق حول مادة الاستعارة وتعريفها كما يلى:

"الاستعارة : هى محسن بديعى يستخدم فيه اسم أو لفظ وصفى للإشارة إلى شئ ما يختلف عن الشئ الذى يشير إليه دائماً، إلا أنه يشبهه من أحد الأوجه" هذه الرؤية المعبر عنها رسختها بشدة هذه التحديدات التى جعلت الكاتب المعاصر يدافع بوضوح عن رؤية مختلفة وأكثر سوفسطائية، ومع ذلك فإنه ينزلق إلى النمط القديم بتحديد الاستعارة على أنها "تقول شيئا وتعنى شيئاً آخر"

وطبقاً للنظرية الاستبدالية فإن بؤرة الاستعارة - الكلمة أو التعبير الذى يستخدم استعارياً ضمن إطار حرفى - تستخدم لتوصيل معنى يمكن أن يكون معبراً عنه بشكل حرفى إن المؤلف يستبدل (M) بـ (L). ووظيفة القارئ أن يقلب الاستبدال باستخدام المعنى الحرفى (M) كمفتاح للمعنى الحرفى المقصود (L)، وفهم الاستعارة هنا يشبه فك شفرة أو حل لغز.

والآن فإننا لو سألنا : لماذا يكلف الكاتب قارئه أن يحل أحجية فى ظل هذه الرؤية، فإننا سنقدم نمطين من الإجابة : الأول أنه قد لا يوجد فى الحقيقة مكافئ حرفى (L) متاح فى اللغة التى نحن بصددها. إن علماء الرياضيات تحدثوا عن "ساق" الزاوية لأنه لا يوجد تعبير مختصر لهذا الخط المحدد، ونقول "شفاه كرزية" لأنه لا يوجد شكل من الكلمات يكون ملائماً للتعبير باختصار عن ماذا تشبه

الشفاه. إن الاستعارة تسد الثغرات فى المفردات الحرفية (أو على الأقل تمدنا بحاجة الاختصارات الملائمة). وفى ظل هذه الرؤية فإن الاستعارة تعد ميتة، وأحددها على أنها استخدام اللفظ فى بعض المعانى الجديدة كى تعالج ثغرة فى المفردات. إن الاستعارة الميتة هى وضع معانى جديدة فى ألفاظ قديمة. لكن لو خدمت هذه الاستعارة الميتة الحاجات الأساسية فإن المعنى الجديد الذى قدم بسرعة سيصبح جزءاً من المعانى الحرفية. إن كلمة (ORANGE برتقال أو برتقالى) أصبحت تنطبق بهذه الاستعارة الميتة على اللون، لكن الكلمة الآن أصبحت تنطبق على اللون انطباقها التام على الفاكهة (وبشكل غير استعارى). إن المنحنيات التقبيلية لا تكون قُبلة أبداً، وقد عادت بسرعة إلى أن تكون أكثر نثرية واتصالاً بالرياضيات. وبالمثل الحالات الأخرى. إن قدر الاستعارة الميتة أن تختفى عندما تكون ناجحة.

مع ذلك فإن هناك عديداً من الاستعارات لا تنطبق عليها المزايا التى تنسب للاستعارة الميتة. لأنه توجد أو من المفترض أن توجد بعض المكافئات الحرفية المختصرة المساوية والمتاحة بسهولة. وهكذا فإن المعنى الحرفى فى هذا المثال سيئ الحظ بشكل ما "ريتشارد أسد" والذى ناقشه الكتاب المعاصرون بإسهاب يشبه جملة "ريتشارد شجاع" وهنا فإن الاستعارة لا يفترض أنها ستغنى المفردات.

وعندما لا يمكن للاستعارة الميتة أن توضع موضوع التنفيذ، فإن أسباب استبدالية التعبير غير المباشر الاستعارى تجنح إلى أن تكون أسلوبية. لقد قلنا إن التعبير الاستعارى ربما يشير فى استخدامه الحرفى إلى موضوع أكثر حسية مما يعنيه مكافئه الحرفى، وهذا يفترض أنه يمنح المتعة للقارئ (متعة أن تمتلك أفكاراً تنحرف من ريتشارد إلى الأسد الذى لا يتعلق به) ومرة أخرى، فإن القارئ سيستمتع بحل المشكلة، أو يبتهج بمهارة الكاتب فى إخفاء نصف معناه وإظهار النصف الآخر. أو أن الاستعارة تصدمنا بمفاجأة مقبولة وهكذا دواليك. إن المبدأ الذى يكمن خلف هذا التفسير يبدو كالتالى : عندما هناك يكون شك فى بعض

ميزات اللغة، فإننا ننسب هذه الخاصية للمتعة التى تمنحها للقارئ. مبدأ الثقة فى العمل فى حالة عدم وجود أى دليل.

ومـــهما كانت الثقة فى مثل هذا التأمل فى رد فعل القارئ، فإن مبدأ الزينة فى صنع الاستعارة يعد مقبولا فيما عدا حالات تكون فيـــها الاســـتعارة اســـتعارة اضـــطرارية Catachrsis تعالج بعض النقص المؤقت فى اللغـــة الحرفيـــة، إن غرض الاستعارة فى هذه الحالة يكون المتعة والتسلية واستخدامها فى ظل هـــذه الرؤية يكون دائما فى تعيين الانحراف عن الأسلوب البسيط والمناسب على نحـــو تام (WHATELY) وهكذا فلو أن الفلاسفة لديهم شئ أكثر أهمية من أن يقدموا المتعة لقرائهم، فإن الاستعارة لن يكون لها مكان مهم فى مناقشاتهم الفلسفية.

(٤)

إن الرؤية التى ترى أن التعبير الاستعارى يملك معنى منقولا عـــن معنـــاه الحرفى العادى هى حالة خاصة لرؤية أكثر عمومية عن اللغة التصويرية. وهـــى ترى أن أية صورة كلامية متضمنة التغير الدلالى (وليس فقط التغير التركيبى، مثل قلب نظام الكلمة العادى) تتكون فى بعض التحـــولات مـــن المعنـــى الحرفـــى. إن المؤلف لا يمدنا بمعناه المقصود فقط (M) بل ببعض الوظـــائف المتعلقـــة بـــها F(M)، ومهمة القارئ أن يطبق الوظيفة العكســـية ١- F لكـــى يحصـــل علـــى F - ١ (F(M))، ثم (M) التى هى المعنى الأصلى. وعندما تســـتعمل وظـــائف مختلفة فإنه ينتج عنها مجازات مختلفة، مثلا فى المفارقة، فـــإن المؤلـــف يقـــول عكـــس ما يقصد من معنى، وفى المبالغة فإنه يبالغ فى معناه، وهكذا.

ما هى إذن الوظيفة التحويلية المميزة المنتشرة فى الاستعارة ؟ إن الإجابـــة عن هذا السؤال إما أن تكون التشابه أو المماثلة. إن (M) إما أن تماثل المكـــافئ الحرفى لها (L) أو تشبهه فى معناه، وبمجرد أن يكتشف القارئ دوافع التشابـــه المقصود أو التماثل (بمساعدة الإطار، أو بمساعدة مفـــاتيح تـــأتى مـــن الســـياق الأوسع)، فإنه يستطيع استعادة طريق المؤلف، وهكذا يصل إلى المعنـــى الحرفـــى

الأصلى (معنى (L)، ولو أن كاتبا لديه استعارة تتكون من التشابه أو التماثل المفهوم ضمنا فى العرض، فإنه سوف يأخذ ما سوف أسميه النظرية المقارنة للاستعارة. فعندما أطلق شوبنهور على دليل هندسى اسم "شرك الفأر"، فإنه قد قال طبقا لهذه النظرية (ليس على نحو بين)" إن الدليل الهندسى يشبه شرك الفأر، من حيث إن كليهما يقدمان مكافأة خادعة. فهو يغرى ضحيته بقبولها، قائدا له إلى مفاجأة غير مقبولة وهكذا". هذه هى النظرة للاستعارة على أنها تمثيل مكثف أو موجز، ويجب أن يكون ملاحظا أن النظرية المقارنة هى حالة خاصة من النظرية الاستبدالية. لأنها تعنى أن مقارنة حرفية مكافئة يمكن أن تحل محل التعبير الاستعارى.

قال ويتلى WHATELY" إن التشبيه أو المقارنة يمكن أن نعدها مختلفة عن الاستعارة فى الشكل فقط، والتشابه كائن عندما تكون الاستعارة حالة واضحة جدا. ويقول باين BAIN "إن الاستعارة هى مقارنة تتضمن الاستخدام الحدى للمصطلح "ويضيف "إنه فى حالة كونها محدودة بكلمة أو فى الأغلب بتعبير، فإننا نبحث عن خصوصيات الاستعارة : مميزاتها فى جانب، ومساوئها فى جانب آخر" . هذه الرؤية التى ترى الاستعارة تشبيها كثفا أو مقارنة شائعة جدا.

إن الفرق الرئيس بين الرؤية المقارنة (للنوع الذى تأملناه سابقا) والشكل الخاص لها والذى أطلق عليه اسم "النظرية المقارنة" يمكن أن يوضح بالمثال المبتذل" ريتشارد أسد". فمع الرؤية الأولى فإن الجملة تعنى تقريبا "ريتشارد شجاع". ومع الرؤية الثانية فإنها تعنى تقريبا "إن ريتشارد مثل الأسد فى (الشجاعة). إن الكلمات المضافة بين الأقواس مفهومة لكنها ليست معلنة بشكل واضح. وفى الترجمة الأولى فإن التعبير الاستعارى يؤخذ ليحل محل بعض المكافئات الحرفية، لكن النظرية المقارنة تمدنا بصياغة جديدة متقنة، لأن التعبير الأصلى يفسر على أنه حديث عن الأسود مثلما هو حديث عن ريتشارد.

إن أهم اعتراض على النظرية المقارنة أن بها غموضا وفراغا، وإنه من المفترض أن نكون في حيرة، لأنه كيف يمكن لتعبير (M) (في استخدامه الحرفي) يشبه ما يرمز إليه (L). لكن كيف يكون هذا إخباريا ؟ لكي يجاب عن هذا السؤال توجد بعض الإغراءات للتفكير في التشبيهات كمعطى موضوعي. " هل (A) تشبه (B) في وجود (P)" بشكل محدد ودقيق. ولو كان هذا هكذا، فإن التشبيه ستتحكم فيه بوضوح نفس القواعد التي تتحكم في الجمل التي تتحدث عن الفيزياء. لكن التماثل يفسح مجالا لدرجات فيه، وبالتالي فإننا نحتاج إلى سؤال موضوعي حقيقي يشمل بعض هذه الأشكال مثل : هل A أكثر مشابهة بـ B عن C في مثل مقياس درجات P ؟ وكما بحثنا مثل هذه الأشكال فإن الجمل الاستعارية تفقد تأثيرها وميزتها في التناسب.

إننا نحتاج إلى الاستعارة في مثل هذه الحالات التي لا تكون الدقة العلمية مطلوبة بها بعد. إن الجملة الاستعارية ليست بديلا لمقارنة شكلية أو لأي نوع آخر من الجمل الحرفية، بل لها قدراتها المميزة وإنجازاتها. وغالبا نقول X هي M مثيرين بعض الترابطات بين M و L الملتصقة بها (أو بشكل آخر، غير محدد L1,L2,L3....) وفي حالات تكون سابقة في تكوينها على الاستعارة، فإننا نلجأ إليها جديا لإيجاد أي تشابه حرفي بين M و L. وسيكون أكثر توضيحا في بعض هذه الحالات أن نقول إن الاستعارة تخلق التشبيهات عن أن نقول إنها تعيد صياغة بعض التشبيهات السابقة الوجود.

(٥)

إنني سألتفت الآن إلى نمط من التحليل سوف أطلق عليه النظرية التفاعلية للاستعارة، إنها تبدو لي خالية من العيوب الرئيسة في النظرية الاستبدالية أو المقارنة، وهي تقدم بعض الرؤى النافذة المهمة لاستعمالات الاستعارة وحدودها.

لنبدأ بالجملة التالية المأخوذة من (ريتشاردز) في أبسط صيغة، إننا عندما نستخدم الاستعارة فإن هناك فكرتين عن شيئين مختلفين ينشطان معا

ويتعاضدان بواسطة كلمة مفردة أو تركيب يكون معناه محصلة لتفاعلهما " ربما نكتشف ما المقصود هنا بملاحظة ريتشاردز حين نطبقها على مثالنا المبكر" إن الفقراء هم زنوج أوروبا". إن النظرية الاستبدالية فى صورتها الأكثر فجاجة تخبرنا أن هناك شيئا ما عن فقراء أوروبا يعرض بشكل غير مباشر (لكن ما هو ؟ إنها طبقة مضطهدة، وأيضا توبيخ دائم لأفكار المجتمع الرسمية، وأن الفقر يورث ويتعذر محوه)، أما النظرية المقارنة فإنها تدعى أن هذه الفكرة التى يعبر عنها بطريقة بارعة وموهمة بالتناقض تستحضر مقارنة بين الفقراء والزنوج. وعلى النقيض من كلا النظريتين، فإن ريتشاردز يقول إن أفكارنا حول فقراء أوروبا وزنوج أمريكا (تنشطان معا) و (تتفاعلان) لإنتاج معنى هو محصلة هذا التفاعل.

إننى أعتقد أن هذا يجب أن يعنى أن الكلمة البؤرية فى السياق المعطى "زنوج" تحصل على معنى جديد ليس هو بالضبط معناها فى الاستخدام الحرفى ولا أى معنى يستبدل حرفيا به. إن السياق الجديد (إطار الاستعارة بتعبيرى الاصطلاحى) يفرض توسعا فى المعنى على الكلمة البؤرية. وسآخذ ريتشاردز للقول: إنه لكى تعمل الاستعارة فإن القارئ يجب أن يكون مدركا لهذا التوسع فى المعنى، يجب أن يعنى بالمعنى القديم والجديد معا.

لكن كيف يؤثر هذا التوسع أو التغير فى المعنى؟ عند نقطة واحدة يتحدث ريتشاردز عن السمات الشائعة للمصطلحين (الفقراء والزنوج) على أنهما سبب الاستعارة "فلسفة الاستعارة. ص : ١١٧) وبالتالى فإن الكلمة أو التعبير فى استخدامها الاستعارى يجب أن يتضمنا اختيارا واحدا فقط من مجموعة السمات المتضمنة فى استخدمهما الحرفى، ومع ذلك فإن هذا يبدوا أنه ارتداد نادر عن الأقدم وتحليل أقل سوفسطائية عن الذى يحاول أن يبطله. وهو يبدو فى أرضية صلبة عندما يقول : إن القارئ مجبر على ربط الفكرتين (ص : ١٢٥). فى هذا الربط يكمن سر الاستعارة وغموضها. إن الحديث عن "التفاعلية" أو

الفكرتين اللتين تنشطان معا (أو مرة أخرى عن إضاءتهما معا أو تعاونهما) هو استخدام الاستعارة فى التأكيد على الجوانب الحيوية لاستجابة القارئ الجيد للاستعارة غير المبتذلة. إننى لن أختلف مع استخدام الاستعارات (لو كانت جيدة) فى الحديث على الاستعارة. لكنها ربما تكون - إضافة إلى استخدام العديد منها - قائمة تضللنا فيها الفتنة العارضة لاختياراتنا المفضلة.

لنحاول على سبيل المثال أن نفكر فى الاستعارة على أنها مرشح، متأملين هذه الجملة "الرجل ذئب". هنا ربما نقول : يوجد موضوعان - الموضوع الرئيس هو الرجل أو "الرجال" و الموضوع الفرعى هو الذئب أو "الذئاب" والآن فإن الجملة الاستعارية المطروحة لن تنقل معناها المقصود للقارئ الذى يجهل تماما الذئاب. إن ما نحتاج إليه ليس أن يعرف القارئ المعنى المعجمى المعيارى لكلمة "ذئب". أو أن يكون قادرا على استخدام هذه الكلمة حرفيا داخل ما أسميه بنظام الكلمات الشائعة التى تأتى بالتداعى. تخيل مثلا إذا طلب من إنسان عادى (غير متخصص) أن يسرد الأشياء التى يراها صحيحة حول الذئاب دون أن يلقى لها بالا (أى دون أن يفكر فيما يقول بعمق). إن مجموعة الجمل (التى ستقال) تنتج تقريبا ما أسميه هنا نظام الكلمات الشائعة حول كلمة (ذئب). إننى أفترض أن الاستجابات التى ينتجها الأشخاص المختلفون للاختبار المقترح - فى أى ثقافة معطاة - سوف تكون مقبولة إلى حد ما، وحتى الخبير المناسب الذى يمتلك معرفة غير عادية عن الموضوع سوف يظل يعرف "ما يعرفه رجل الشارع حول المسألة". ومن وجهة نظر الخبير فإن نظام الكلمات الشائعة ربما يشتمل على نصف الحقائق، أو على أخطاء صريحة (مثلما يصنف الحوت على أنه من الأسماك). لكن الشيئ المهم فى تأثير الاستعارة ليس فى أن تكون الكلمات الشائعة حقيقية، لكن فى أنها تصور الأشياء بطريقة نابضة بالحياة فى شكل سهل وحر. (ولهذا السبب فإن الاستعارة التى تؤثر فى مجتمع ما، ربما تبدو منافية للعقل فى مجتمع آخر، فالمرء الذى يعتقد أن الذئاب يمكن أن

تتناسخ مع الأجسام البشرية الميتة سوف يعطى لجملة "الرجـل الذئـب" تفسـيرا يختلف عن التفسير الذى أفترضه).

ولنضـع المسألة فى شكل آخر: إن الاستخدامات الحرفية لكلمـة (ذئـب) تتحكم فيها القواعد التركيبية والدلالية، وانتهاكها ينتج لغـوا أو تناقضـا ذاتيـا. بالإضافة إلى ذلك، فأنا اقترح أن الاستخدام الحرفى للكلمة يسلم المتكلـم بشكـل عادى إلى قـبول مجموعة من المعتقدات السائدة حول الذئاب (كلمات شائعة) هى المحصـلة الشائعة لأعضاء جماعة لغوية ما. ولرفض أى جـزء مـن الأفكـار المقبولة (كأن نقول إن الذئاب هى نباتية - أو من السهل ترويضها) هو أن ننتج تأثيرا مفـارقا ونثير طلبا للتبرئة. أن المتكلم الذى يقول " ذئب يضمنـها بشكـل عادى بعض معانى الكلمة التى يشير فيها المتكلم إلى شئ متوحش، آكـل للحـم، مخادع، وهكذا. إن فكرة الذئب هى جزء من نظام أفكار غير مخطط بدقـة، ليـس محددا بشكل كاف للسماح بسرد مفصل.

إن تأثير أن نطلق على رجال (استعاريا) أنه ذئب، هو إثارة نظام الذئبية فى الأشياء الشائعة المرتبطة به. فلو كان الرجل ذئبا، فإنه سوف يفترس الكائنات الأخرى ويكون عنيفا، جائعا دائما، مشاركا فى معارك متواصلة، مقتاتا للقمامـة، وهكذا. كل من هذه تشتمل على تأكيدات تصنع الآن كى تنطبق علـى الموضـوع الرئيـس (الرجل) إما فى معانى عادية أو غير عادية. ولـو كـانت الاسـتعارة ملائمة فإنها تسـتطيع أن تقوم بذلك إلى حد ما على الأقل. إن معرفـة السـامع بالاستعارات المتصلة بالذئاب قد تجعله يستخدم مناظرة للإشارة إلى موضوعـه الرئيس. لكن هذه التضمينات لن تكون هى التى تحتويها الأفكار الشائعـة التـى تحتويها الاستخدامات الحرفية لكلمة "رجل". إن التضمينـات الجديـدة يجب أن يحددها شكل التضمينات التى تتداعى مع الاستخدام الحرفـى لكلمـة "ذئـب" وأى صفات إنسانية أخرى نستطيع التحدث عنها بدون جهد غير ضرورى فـى اللغـة الذئبية سوف تكون بارزة، وأية صفات أخرى لا نستطيع فيها ذلك سوف تـتراجع

إلى الخلف. إن استعارة الذئب تطمس بعض التفاصيل، وتؤكد على أخرى، وباختصار فإنها تنظم رؤيتنا حول "رجل".

افترض أننى أتطلع إلى السماء المظلمة من خلال قطعة من الزجاج المضبب الثقيل الذى تترك فيه خطوط معينة واضحة. إننى سوف أرى فقط النجوم التى تقع على الخطوط المهيأة بوضوح على الشاشة. وهذه النجوم التى أراها سوف تنظمها بنية الشاشة. إننا نستطيع التفكير فى الاستعارة مثل تفكيرنا فى مثل هذه الشاشة، وتفكيرنا فى نظام الكلمات العامة التى تتداعى مع اللفظ البؤرى على أنه شبكة من الخطوط على الشاشة. إننا يمكن أن نقول إن الموضوع الرئيس " يرى من خلال" التعبير الاستعارى، أو - لو أننا نفضل - أن الموضوع الرئيس يتصور من خلال حقل الموضوع الفرعى (فى التشبيه الختامى، فإن نظام تضمينات التعبير البؤرى يجب أن يؤخذ ليحدد " قانون التصور".

أو خذ مثلا آخر، أن لدى مهمة وصف معركة مستخدما على قدر الإمكان مفردات لعبة الشطرنج. هذه المصطلحات الأخيرة تحدد نظام التضمينات التى سوف تواصل التحكم فى وصفى للمعركة. إن الاختيار المجبر عليه من مفردات لعبة الشطرنج سوف يؤكد بعض الجوانب فى المعركة، وسوف يهمل جوانب أخرى. كل ذلك سوف ينظم فى أسلوب يسبب جهدا أكبر من أنماط الوصف الأخرى. إن مفردات لعبة الشطرنج ترشح وتحول. إنها لاتختار فقط، بل إنها تبرز أشكالا من المعركة ربما لا ترى من خلال وسائط أخرى (النجوم التى لا ترى ككل إلا من خلال المنظار)

إننا يجب أن نهمل تغيرات الاتجاه الذى ينتج عن استخدام اللغة الاستعارية بشكل منتظم. إن الذئب (اصطلاحيا) هو بغيض، ودافع منذر بالخطر، ولهذا فأن نطلق على رجل أنه ذئب يعنى أنه أيضا مكروه ومنذر بالخطر (وهكذا لتأكيد وتدعيم الاتجاهات الازدرائية). مرة أخرى فإن مفردات الشطرنج تملك استخداماتها الأولية فى محيط مصطنع عال، حيث كل تعبيرات الإحساس تستبعد رسميا: إن

وصـف معركة على أنها لعبة شطرنج هو اسـتبعاد لكـل الأشكـال التوزيعيـة العاطفية للصراع طبقا لذلك، وحسب اختيار اللغة.

إن الاعتراض الواضح غير المتحيز على المخطط السابق للنظرية التفاعلية هو أنها تجعل بعض الكلمات الشائعة المتداعية نفسها تخضع للتغيرات الاستعارية للمعنى فى عملية التحول من الموضوع الثانوى إلى الموضوع الرئيـس. وهـذه التغيرات - لو حدثت - يستطيع التفسير الممنوح أن يشرحـه بصعوبـة. يمكـن القول إن الاستعارة الأولية تحلل إلى مجموعة من الاستعارات الثانوية، وهكذا فإن التفسير الممنوح إما أن يكون دائريا أو يقود إلى ارتداد لا متناه.

قد يرفض هذا بالقول: إن تغيرات المعنى فـى الكلمـات العاديـة الشائعـة المتداعية يجب أن تحسب على أنها تغيرات استعارية. وكثير منها يعد توسعا فـى أحسن وصف له، لأنها لا تستلزم ارتباطات واضحة بين نظامى المفهومات. إننـى أشرح كيف تحدث مثل هذه التوسعات أو التغيرات، ولا أعتقد أن هناك فـائدة مـا تنطـبق على كل الحالات (أنه من السهل بما فيه الكفاية الغمغمة بالتشبيه، ولكن الفحص القريب سوف يبين حالا كل أنواع الأسباب لتغيرات المعنى مع السـياق. وحتى عندما لا تكون هناك أسباب على الإطلاق فى بعض الأحيان).

ثانيا فأنا لا أريد أن أنكر أن الاستعارة يمكن أن تشمل عددا من الاستعارات الثانوية ضمن تضميناتها. لكن هذه الاستعارات الثانوية كما أعتقد تقصد إلـى أن تكون أقل تشديدا وأقل ضغطا على تضميناتها. (إن التضمينات فى الاستعارة تكون مثل النغمة التوافقية فى الوتر الموسيقى: إن لمسة أثقل مما ينبغى عليـها مثـل محاولة أن تجعل صوت النغمة التوافقية عاليا مثل النغمة الأساسية. ومثـل هـذا يبدو حمقا). وعلى أى حال فإن الاستعارات الأولية والاستعارات الثانوية تنتسـب إلى نفس الحقل من الخطاب، وبالتالى فإنها تدعم بالتبـادل نفـس النظـام مـن التضمينات. وعكسيا فحيث تظهر استعارات جديدة على أنـها اسـتعارات أوليـة

مفككة، فإن هناك مخاطرة جادة فى أن يضطرب الفكر (قارن التحريم المألوف ضد الاستعارات المختلطة).

لكن القيمة السابقة للاستعارة تحتاج إلى تصحيح؛ والإشارة إلى الكلمات العامة تدعم قضايا الشيوعى على سبيل المثال، حيث يتلاعب ببساطة بمخزون المعلومات العامة(والمعلومات المضللة). حيث يمكن الافتراض أنها مشاركة بينه وبين القارئ. لكن فى قصيدة أو فى قطعة نثرية قوية فإن الكاتب يستطيع بناء هيكل العمل من تضمينات الاستخدامات الحرفية للتعبيرات المفاتيح سابقا على استخدامها على أنها محمولات لاستعاراته. (إن المؤلف يستطيع أن يفعل كثيرا من أجل طمس التضمينات غير المطلوبة لكلمة "عقد" على سبيل المثال بالمناقشة الصريحة لمعناها المقصود قبل أن يتقدم لتطوير نظرية العقد للدولة ذات السيادة. أو عالم الطبيعة الذى يعرف حقيقة الذئاب ربما يخبرنا كثيرا عنها إلى درجة أن وصفه للرجل على أنه ذئب ينحرف بشكل ملحوظ عن الاستخدام المخزون لهذه الصورة). إن الأنظمة البنائية الخاصة للتضمينات يمكنها أن تدعم الاستعارة مثلما تفعل الكلمات العامة المقبولة. إنها يمكن أن تقاس ولا نحتاج أن تكون رخيصة.

إنه من التبسيط مرة أخرى الحديث كما لو كان نظام التضمينات للتعبير الاستعارى يبقى غير قابل للتغيير بواسطة الجملة الاستعارية. إن طبيعة التطبيقات المقصودة تساعد على تحديد سمه النظام القابل للتطبيق (وكأن النجوم تستطيع جزئيا تحديد سمة شاشة الملاحظة التى تتطلع إليها). لو أن إطلاقنا على الرجل أنه ذئب يبدو أكثر إنسانية عما يبدو من نواح أخرى.

أننى آمل أن مثل هذه التعقيدات يمكن أن تتوافق داخل المخطط التمهيدى للنظرية التفاعلية التى حاولت أن أعرضها.

(٦)

نظـــرا إلى أننى أنشئ عددا وافر من الأمثلة والتوضيحات، فإنه يمكن أيضا توضيح بعض الجوانب الرئيسة التى تختلف فيها النظرية التفاعلية عن النظريــــة الاستبدالية أو المقارنة بشكل مختصر.

فى الشكل الذى شرحته فإن النظرية التفاعلية تسلم إلى النقاط السبع التالية:

١-الجملة الاستعارية لها موضوعان مميزان: الموضـــوع الرئيـــس والموضـــوع التابع.

٢-هذان الموضوعان من الأفضل رؤيتهما على أنهما نظامان من الأشياء لا على أنهما أشياء فعلا.

٣-تعمل الاستعارة بتطبيق نظام سمات التضمينات المتداعية للموضوع الثـــانوى على الموضوع الرئيس.

٤- هـــذه التضمينات تتكون عادة من الكلمات العامة حول الموضـــوع الثـــانوى، لكن ربما فى حالات مناسبة تتكون من التضمينات المنحرفـــة التـــى ينشئـــها الكاتب.

٥-الاستعارة تختار سمات الموضوع الرئيس وتؤكده وتقمعه وتنظمـــه بتضميـــن جمل تنطبق عادة على الموضوع الثانوى.

٦-وهذا يستلزم تغيرات فى معنى الكلمات المتعلقة بنفس العائلة أو النظام علـــى أنها تعبير استعارى، وبعض هذه التغيرات - ليست كلها مع ذلك - ربما تكون تحولات استعارية (هذه الاستعارات الثانوية مع ذلك تقرأ بأقل تأكيد).

٧-عامة لا توجد أسباب بسيطة للتغيرات الضرورية فى المعنى. لا يوجـــد ســـبب شامل لأن تؤثر بعض الاستعارات، وتفشل أخرى.

أننى أجد بعد الفحص أن النقطة الأولى متعارضة مع الشكل الأبسط للنظرية الاستبدالية، والنقطة السابقة متعارضة مع النظرية المقارنة. بينما النقاط الباقـــية لديها أسباب لجعل النظرية المقارنة أقل ملاءمة.

لكن من السهل أن نبالغ فى الصراع بين النظريات الثلاث. ولو جاز لنا الإصرار على الاكتفاء بالأمثلة التى تلزم بكل النقاط السبع المذكورة آنفا، لوجب علينا قصر استخدام كلمة الاستعارة على حالات قليلة جدا. وهذا يكون بالدفاع عن تحديد مقنع للاستعارة يتجه لجعل كل الاستعارات معقدة بشكل مشوق. ومثل هذا الانحراف عن الاستخدامات الشائعة لكلمة الاستعارة سوف يتركنا بدون علامة ملائمة للحالات الأكثر ابتذالا. والآن فإن من الإنصاف أن مثل هذه الحالات المبتذلة تلاحظها النظرية الاستبدالية والنظرية المقارنة أحيانا أفضل من النظرية التفاعلية. إن النقطة التى ربما تقابلها النظرية الأخيرة هو تقسيم الاستعارات على أنها أمثلة للنظريات الاستبدالية أو المقارنة أو التفاعلية. والنوع الأخير فقط هو المهم فى الفلسفة.

إن الترجمة الحرفية يمكن أن تحل محل الاستعارات الاستبدالية أو الاستعارات المقارنة (مع استثناء ممكن لحالة الاستعارات الميتة) مع استثناء فتنة الاستعارات الأصلية وظروفها، وعدم فقدان المحتوى المعرفى. لكن الاستعارات التفاعلية ليست قابلة للاستهلاك. إن نمط عملياتها يتطلب من القارئ استخدام نظام التضمينات ونظام الكلمات العامة الشائعة أو أى نظام خاص ينشأ لهذا الغرض) كأدوات للاختيار والتأكيد وتنظيم العلاقات فى حقل مختلف. هذا الاستخدام للموضوع الثانوى لتعزيز الرؤية للموضوع الرئيس هو عملية عقلية مميزة (ومع ذلك فإن واحدا يكفى خلال خبرتنا فى تعليم أى شئ مهما كان). متطلبا إدراكا متزامنا لكلا الموضوعين، لكن ليس خضوعا لأية مقارنة بين الموضوعين.

افترض أننى أحاول تبسيط المحتوى المعرفى للاستعارة التفاعلية فى لغة سهلة. فى هذا فإننا يمكن أن ننجح فى تبسيط عدد من العلاقات المناسبة بين الموضوعين (برغم رؤية الامتداد فى المعنى مصاحبا للتغير فى نظام التضمينات للموضوعات الثانوية، ولا يتوقع الكثير من إعادة الصياغة بشكل

حرفى). لكن مجموعة الجمل الحرفية التى سنحصل عليها لن يكون لها قوة التأكيد والتنوير التى يملكها الأصل. ولأجل شئ واحد، فإن التضمينات التى تركناها سابقا للقارئ الملائم أن يستنبطها بنفسه - مع شعور لطيف بأسبقيتها النسبية ودرجتها فى الأهمية - تعرض الآن بشكل واضح على أنها تملك الوزن نفسه برغم ذلك. إن إعادة الصياغة تقول الكثير بشكل لا يمكن تجنبه، وبتأكيد خاطئ. وواحد من النقاط التى تود التأكيد عليها أن الفقد فى مثل هذه الحالات هو فقد فى المحتوى المعرفى، والضعف المناسب لإعادة الصياغة الحرفية ليس أنها ربما تكون مسهبة لدرجة الملل أو أنها بسيطة و مضجرة (أو أنها ضعيفة فى الكفاءة الأسلوبية) إنها تفشل فى أن تكون ترجمة لأنها تفشل فى أن تعطى نفس الرؤية التى تعطيها الاستعارة.

لكن تحليل الاستعارة أو التوسع فى أسبابها - لو لم ينظر إليه على أنه بديل معرفى مناسب للأصل - يمكن أن يكون ذا قيمة كبيرة جدا. والاستعارة القوية لن تكون أكثر ضررا بهذا السبر عن القطعة الموسيقية بتحليل بنائها النغمى والهارمونى. لا شك أن الاستعارات خطر، وربما تكون كذلك فى الفلسفة خاصة. لكن تحريم استخدامها سيكون تقييدا مضرا ومتعمدا لقوتنا فى البحث.

الفهرس

رقم الإيداع ٢٩٨٠ / ٩٨
الترقيم الدولى I. S.B.N.
٩٧٧-٠٣-٠٤٣٠-١

الطبعة الأولى يناير ١٩٩٨
الناشر: دار الصديقان للنشر والإعلان
٢٨ ش ممفيس - كامب شيزار



إن الاستعارة ليست مظهرا من مظاهر لغة الشعر فقط، بل إنها إحدى المظاهر المهمة فى اللغة العادية، وهى حقيقة ربما تكون مدركة ، لكنها لم تترجم إلى موقف نقدى، إنها تبدو فى الشعر أكثر تألقا، وربما أكثر تأثيرا، لكن الدور الذى تقوم به فى غير لغة الشعر دور لا يمكن تجاهله . إنها إحدى أدوات الاتصال المهمة بين البشر، وقد ترتب على هذه الوظيفة الاتصالية نتائج أعادت النظر فى المسلمات التى قام عليها بحث الاستعارة، سواء فيما يخص تعريفها، أو طبيعتها، أو علاقتها بقضية الحقيقة والمجاز، أو فى طبيعتها الاتصالية، ونشأت عن ذلك جملة من الأسئلة لم تكن لتطرح بالقوة نفسها إذا ما كان درس الاستعارة محصورا فى حقل الشعر .



